

AL-JABALAWI

AL-KALAM

Princeton University Library



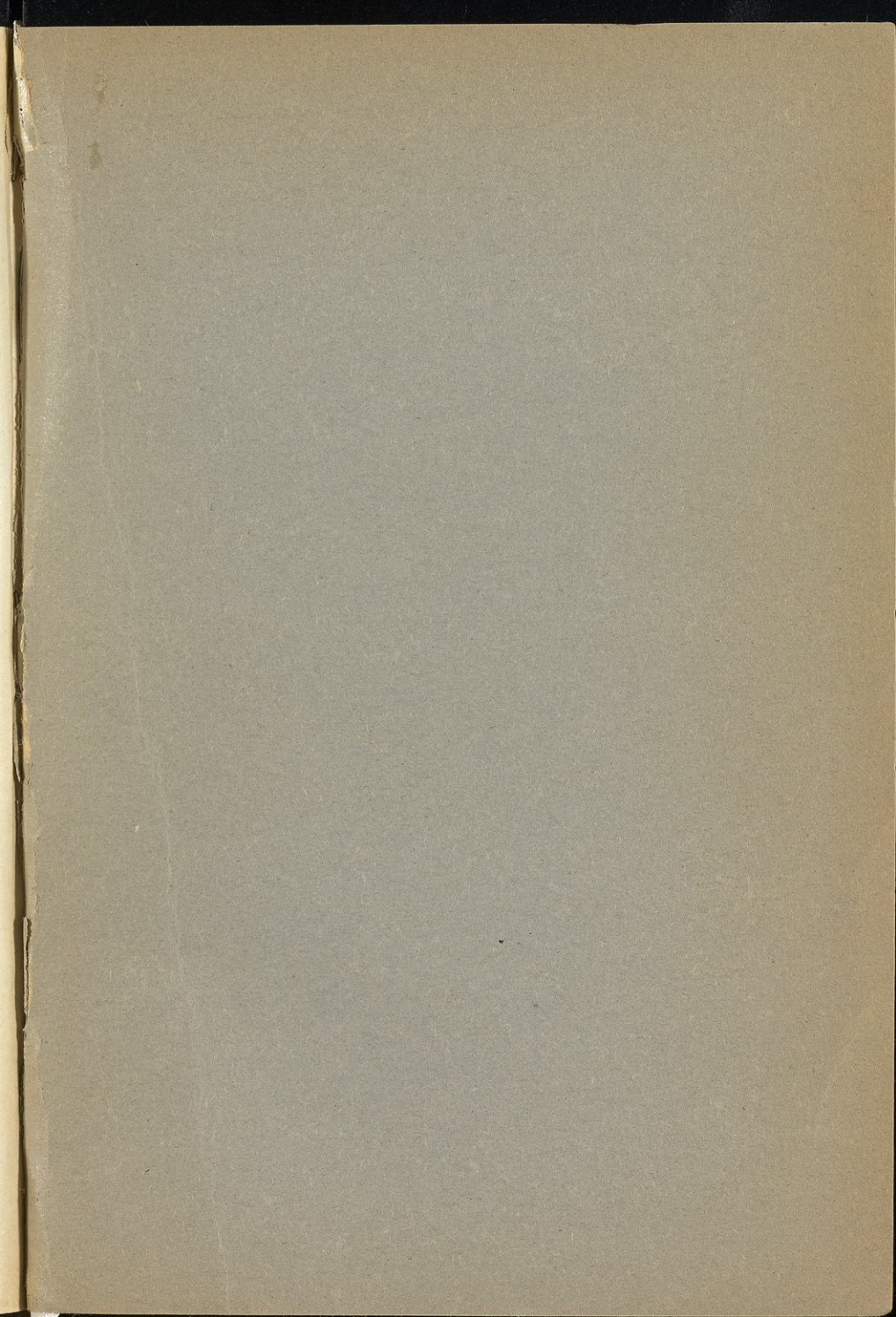
32101 074449388

[illegible]

محمد طاهر الجبلأوى

الكلام
في شعر الجحترى وأبي تمام

مكتبة الطبع والنشر
دار الفكر العربي



al-Jabalāwī, Muḥammad
Tāhir

محمد طاهر الجبلأوى

al-Kalām

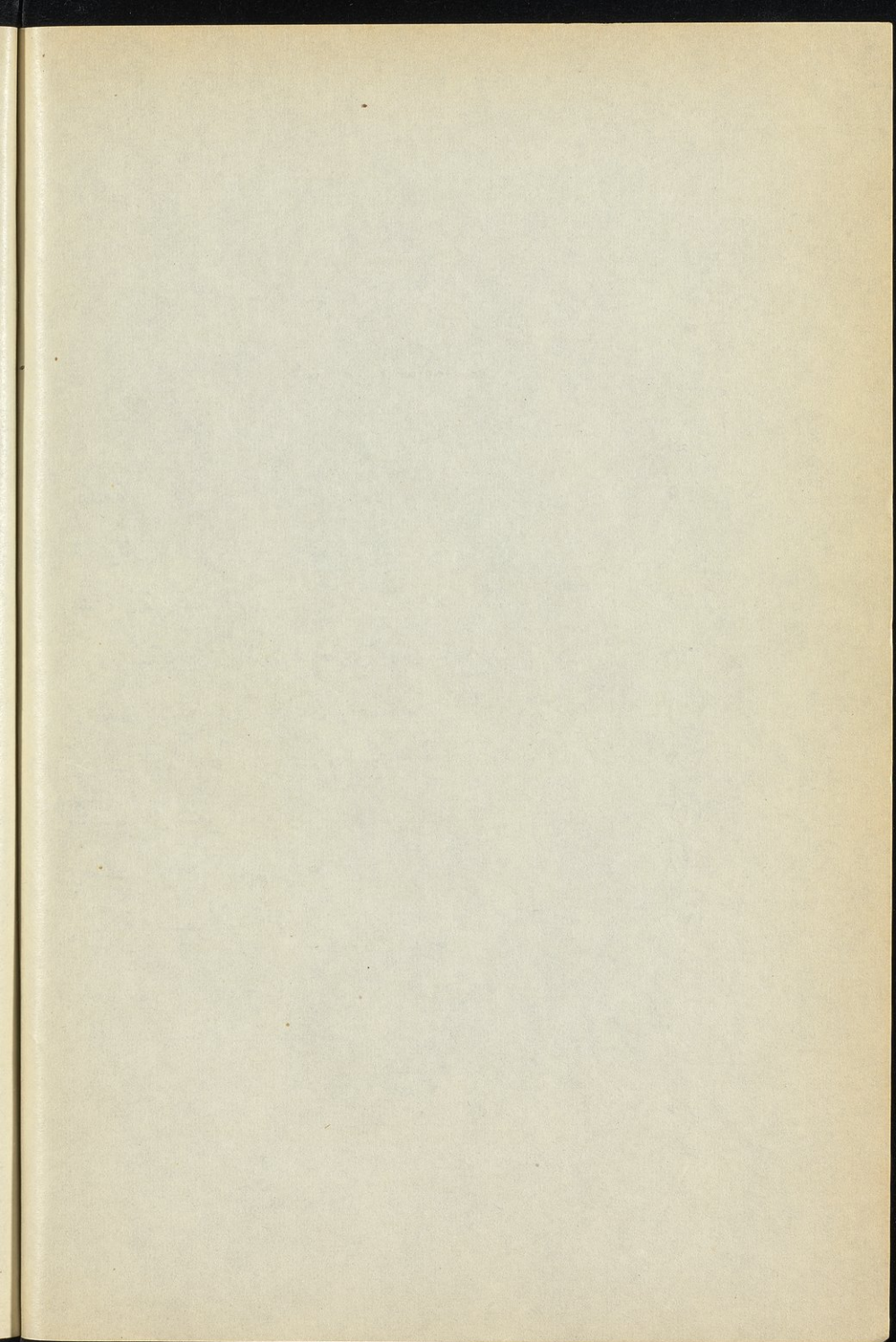
الكلام
في شعر البحري وأبي تمام

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

2271
.505097
.J485
'351

فهرس الكتاب

صفحة	
٥	تقدمة
٧	شاعران
٤٦	نشأة النقد عند العرب
٦٨	رأى المتقدمين في شعر البحترى وأبى تمام
١٠١	وصف الربيع بين البحترى وأبى تمام
١٠٧	وصف المطر عند أبى تمام والبحترى
١١٣	القصور في شعر البحترى
١١٨	وصف إيوان كسرى للبحترى
١٢٣	الحكمة في شعر أبى تمام



تقدمة

ليس هذا الكتاب كتاباً في حياة البحترى وأبي تمام .
ولكنه كتاب في الكلام عن شعرهما وما يتصل به . لذلك لم
نذكر فيه عن تاريخهما إلا ما يحتاج اليه القارئ في فهم هذا
الشعر ومعرفة اتجاهاته .

نشأ أبو تمام والبحتري في أوائل القرن الثالث للهجرة .
وعاش البحتري حتى أدرك أواخره . وعاصر الشاعران عهداً من
عهود التطور والانقلاب في الدولة العربية . فكان شعرهما مرآة
صادقة لذلك العهد .

وأبو تمام والبحتري شاعران مجددان . وشعرهما يختلف
كثيراً عن شعر من تقدمهما من الشعراء ، بل ومن أتى بعدهما
كذلك . لهذا كثر الكلام عنهما واختلفت وجوه النظر
في شعرهما .

ونحن في هذا الكتاب نعطي فكرة عن الشاعرين .
والمؤثرات النفسية والاجتماعية التي أحاطت بكل منهما . ونتكلم

عن طبيعة النقد عند العرب . ونعرض آراء النقاد المتقدمين فيهما ،
ونبدى رأينا فيها ، وتناول بالتحليل بعض القصائد الممتازة من
شعرهما . ونضعهما في ميزان النقد الحديث . حتى يستطيع دارس
الأدب في العصر الحديث : أن يتذوق هذا الشعر الرفيع من
مورد صافي المشارب خال من الشوائب .

وقد أسميته : الكلام — في شعر البحري وأبي تمام —
وهو اسم ينطبق على موضوع الكتاب . وأرجو أن أكون قد
وصلت إلى بغيتي من إبراز النواحي الشعرية ، والأبانة عن
أغراض الشعر . لشاعرين هما في مقدمة شعراء اللغة العربية .

محمد طاهر الجبوري

شاعران

كان الشعراء يجتمعون في كل جمعة في القبة المعروفة بهم
بجامع بغداد ينشدون الشعر ويعرض كل منهم على أصحابه
ما يكون قد نظمه بعد مفارقتهم في الجمعة التي قبلها . فبينما هم
مجتمعون يسمعون إنشاء بعضهم بعضاً ظهر شاب في أخريات
الناس في زى الاعراب فلما فرغ كل منهم وقطع إنشاده التفت
الشاب اليهم وقال : قد سمعت إنشادكم منذ اليوم . فاسمعوا
إنشادي ، فقالوا هات فأنشد : فحواك عين على نجواك يا ندل
ثم مر فيها منشداً حتى أتى إلى قوله :

تغابر الشعر فيه إذ سهرت له حتى ظننت قوافيه ستقتل
وكان من الحاضرين أبو الشيص فعقد عند هذا البيت
خنصره ، ثم استمر الشاب يلقي حتى انتهى من قصيدته . ثم
أنشد قصيدة أخرى . فقالوا له لمن هذا الشعر فقال لمن أنشدكموه .
قالوا : نأشدناك الله من تكون ؟ فضحك وقال أنا أبو تمام
الطائي ، فرفعوا مجلسه وعظموه تعظيماً كبيراً .
قال علي بن الجهم : واشتد اعجابنا به لدماثة أخلاقه وفصاحته

منطقه وجودة شعره . ثم اننى ما عرفت عقد خنصر أبى الشيص
هل كان اعجائياً به مما سمع فى البيت من البديع المرقص ، أو أخذ
عليه فى إسكان الياء فى قوله : حتى ظننت . وهى ضرورة جائزة
عند الشعراء . والحق أن تخفيف الياء وإسكانها مما يحجزه الشعراء
لغير ضرورة .

وما كان هذا ليغيب عن أبى الشيص . ولكنه أخذ بحمال
البيت ورقته وانصرف الى ما يعرضه هذا الفتى المجهول من دقيق
اللفظ وبديع المعنى بين جمع من كبار الشعراء ، أخذوا كما أخذ
أبو الشيص .

كان هذا أول عهد أبى تمام بمجالس الشعراء فى بغداد وأول
ظهوره بين رجال الأدب فيها . . . وذاع خبره وانتشر ذكره ،
وتحدث الناس بشعره . وأقبل الخلفاء والأمراء ورجال الدولة :
يدعونه اليهم ويقدمونه على غيره من شعراء عصره ورجال
الأدب فيه . وهو عصر حافل بالشعراء المبرزين . وحسبك أنه
جمع أمثال على بن الجهم ودعبل الخزاعي والبحتري وديك الجن
الحصى ، وأبو الشيص وأنبت بن المعتز وابن الرومى وغيرهما من
الشعراء الفحول .

وأجيز أبو تمام على شعره بالخلع والجوائز الثمينة وأخذت
تتدفق عليه الأموال من كل جانب . وفي مقدمة من مدحهم
المأمون والمعتصم والواثق . وفي قول أن أحمد بن المعتصم وقع له
بالموصل على قصيدته التي يقول في مطلعها :

ما في وقوفك ساعة من باس تقضى زمام الأربع الأدراس
ومن غزلها قوله :

بكر إذا ابتسمت أراك ومينضها نوز الاقاح برمـلة ميعاس
وإذا مشت تركت بصدرك ضعف ما بحليها من كثرة الوسواس
قالت وقد حم الفراق فكأسه قد خولط الساق بها والحاسي
لا تنسين تلك العهود فأنما سميت إنسانا لأنك ناسي
ومنها في مدح بني العباس

فالأرض معروف السماء قرى لها وبنو الرجاء لهم بنو العباس
القوم ظل الله أمكن دينه فيهم وهم جبل الملوك الراسي
في كل جوهره فرند مشرق وهم الفرند لهؤلاء الناس
وقيل إنه لما وصل في مدح الأمير إلى قوله

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس
قال له أبو يوسف يعقوب بن الصباح الكندي الفيلسوف :

الأمير فوق من وصفت . كيف تشبه ولد أمير المؤمنين بأعراب
أجلاف ، وهو أشرف منزلة وأعظم محله ؛ فانقطع وأطرق
ثم رفع رأسه وأنشد :

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلاً شروداً فى الندى والبأس
فإنه قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس
واستمر فى إنشاده حتى أتم القصيدة . ولما أخذت من يده
لم يمدوا البيتين فيها فعجبوا من سرعة فطنته . واهتز ابن المعتصم
لذلك طرباً وبهت له متعجباً ووقع له بالموصل .

ويقال إن الفيلسوف الكندى قال لابن المعتصم أى شىء
طلبه فأعطه فإنه لا يعيش أكثر من أربعين يوماً ، لأنه ظهر
فى عينه الدم من شدة الفكرة ، وصاحب هذا لا يعيش إلا هذا
المقدار ، فقال له ما تشتهى ؟ فقال أريد الموصل فأعطاه إياها .
فتوجه إليها وبقي هذه المدة ومات .

وفى قول آخر إن أبا تمام لما خرج بعد إنشاء القصيدة قال
الفيلسوف الكندى : هذا الفتى يموت قريباً لأن ذكاه ينحت
عمره كما يأكل السيف الصقيل غمده . وسواء أكان القول الأول
هو الصحيح أو القول الثانى . فإن الرواية فى الحالين تدل على أثر

هذه الفكرة المرتجلة في حينها ودهشة الأمير وجلسائه لتلك
البديهة المفحمة ، وهزيمة الفيلسوف الكندي على مكانته وسمو
قدره أمام الأمير . وقد لاذ بطبه وحكمته من منطق أبي تمام
وسرعة بديهته ١١

ومدح أبو تمام عبدالله بن طاهر : وهو من السادة المعروفين
بالآدب وعلو الهمة . . تولى خراسان وتولى مصر . ومما قيل فيه
وهو بها .

يقول أناس إن مصر بعيدة وما بعدت مصر وفيها ابن طاهر
حدث محمد بن العباس اليزيدي قال : لما شخص أبو تمام الى
عبد الله بن طاهر وهو بخراسان ومدحه بالقصيدة التي يقول
في مطلعها .

أهن عوادى يوسف وصواحيبه فعز ما قدماً أدرك النجح طالبه
أنكر عليه أبو العميثل قوله « أهن عوادى يوسف
وصواحيبه » وقال لأبي تمام لم لا تقول ما يفهم ؟ فقال لأبي العميثل :
لم لا تفهم ما يقال ؟ فاستحسن منه هذا الجواب على البديهة .
وفتر ابن طاهر على أبي تمام ألف دينار فلم يمسه بيده ترفعاً عنها .
فأغضبه ذلك . وقال يحتقر فعلى ويرفع على . وأبطأ بجائزته .

وكان يبعث اليه بالثيء بعد الشيء كالقوت .

وأبو العميثل كان كاتب ابن طاهر وشاعره . وكان كاتب
أبيه من قبله . ربما يروي في بديهته أنه قبل يوماً كف عبد الله
ابن طاهر فاستخشن شاربته فقال : شـوك القنفذ لا يؤلم
كف الأسد .

ولكن أبا العميثل بهت لبديهة أبي تمام وحدة ذكائه .
وكان موقفه منه كموقف الفيلسوف السكندى . ولكنه عاد فأتى
معتذراً الى أبي تمام لعبد الله بن طاهر ، ثم دخل إلى عبد الله فقال :
أيها الأمير ، أتهاون بمثل أبي تمام وتحفوه فوالله لو لم يكن له من
النباهة في قدره والاحسان في شعره والشائع من ذكره ما له ،
لـكان الخوف من شره والتوق لذمه يجب به على مثلك رعايته ،
ومراقبته ، فكيف له بنزوعه اليك من الوطن ، وفراقه للسكن ،
عاقداً أملاً معملاً اليك ركابه ، متعباً فيك فكره وجسمه ، وفي
ذلك ما يلزمك من قضاء حقه حتى ينصرف راضياً .

فقال عبد الله لقد نبهت فأحسننت ، وشفعت فلطففت ،
وعاتبته فأوجعت ، ولك ولأبي تمام العتبي . ودعاه فناده يومه

وأمر له بألفي دينار وما يحمل من الظهر وخلع عليه خلعة تامة
من ثيابه

واتصل أبو تمام بالحسن بن وهب وأخيه سليمان ، وكانا
من أعيان عصرهما أدبا وجاهًا . وفي آل وهب يقول :
كل شعب كنتم به آل وهب فهو شعبي وشعب كل أديب
ومن قصيدة له يصف غلاما أهدها إليه الحسن بن وهب .
لذن البنان له لسان أعجم خرس معانيه ووجه معرب
يرنو فيتملم في القلوب بطرفه ويعن للنظر الحرون فيصحب
قد صرف الرانون حمرة خده وأظنها بالريق منه ستقطب
ومدح أحمد بن أبي دؤاد وله فيه الاعتذارات الجميلة ومنها
قوله في حساده :

تزعوا بسهم قطيعة يهفوه ريش العقوق فكان غير سديد
وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ماكان يعرف طيب عرف العود
لولا التخوف للعواقب لم تزل للحاسد النعمى على المحسود
وهذه الآيات من خير ما قاله أبو تمام ، بل هي من أجود
ما قيل في الحسد بوجه عام . وقد جمعت بين قوة التعبير وجمال

الفكرة في قالب من النظم البليغ ، وتبدو فيها الحكمة البليغة والمنطق الحكيم . وهما من النواحي التي اشتهر بها أبو تمام .

واتصل الشاعر بأبي دلف العجلي : أحد قواد المعتصم . ومدحه بالقصائد البليغة . ونال منه العطايا الكثيرة ووصف بعض المعارك التي خاضها ومن خير ما قاله في ذلك قصيدته التي يقول في مطلعها :

أما الرسوم فقد أذكرن ماسلفا فلا تكفن عن شأنيك أويكفا

وكان أبو دلف قد خرج في جيش لجب تحت إمرة الأفسشين لمحاربة بابك الخرمي . وكانت قد امتدت فتنته وعظم خطره . وكان بابك على مذهب المزدكية الذي يدعو إلى إباحة اللذات واستباحة الحريات وزاد عليه القتل والنهب فقتله الأفسشين في الموقعة التي يصفها أبو تمام في هذه القصيدة . ومن قوله فيها :

إن الخليفة والأفسشين قد علما من اشتقى لهما من بابك وشفى

ومنها في وصف إقدام جيشه وهزيمة بابك

ذمرت جمع الهدى فانقض منصلتا

وكان في حلقات الرعب قد رسفا

ومر بابك مر العيش منجذبا محلوليا دمه المعسول لو رُشفا

حيران يحسب سجع النقع من دهش

طودا يحاذر أن ينقض أو جرفا

خل القنا يستقى من صفه مهجا إما ثمادا^(١) وإما ثرة خسفا

من مشرق دمه في وجهه بطل وواهل دمه للرعب قد نزفا

فذاك قد سقيت منه القنا جرعا وذاك قد شربت منه القنا نطفيا

ومن جيد شعره في أبي دلف بائيته التي يقول في مطلعها :

على مثلها من أربع وملاعب

أذيلت مصونات الدموع السواكب

ومنها يصف شعره في الممدوح

إليك أرحنا عازب الشعر بعدما تمهل في روض المعاني العجائب

غرائب لاقت في فنائك أنسها من المجدفهي الآن غير غرائب

ولو كان يفنى الشعر أفناه ماقرت

حياضك منه في العصور الذواهب

ولكنه صوب العقول إذا انجلت

سحائب منه أعقبت بسحائب

(١) الثماد : الماء القليل . والثره العين الكثيرة الماء والخسف الكثيرة

الماء أيضا .

وقيل إن أبا دلف لما أنشد القصيدة المتقدمة أجاز أبا تمام
بخمسين الف درهم . وقال والله إنها لدون شعرك . ثم قال والله
ما مثل هذا في الحسن إلا ما رثيت به محمد بن حميد الطوسي .
فقال أبو تمام وأى ذلك أراد الأمير ! قال القصيدة التي أولها
« كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر » وددت والله أنها لك في .
فقال أهدى الأمير بنفسى وأهلى وأكون المقدم قبله فقال أبو دلف :
إنه لم يمت من رثى بهذا الشعر .

وابن حميد الطوسي : من قواد المأمون . وكان قد أرسله في
جيش لمحاربة بابك الذي سبق ذكره ، فهزمه جيش بابك هو
ومن معه . وانقضوا عليه فقتلوه . وكان لقتله صدى أليم في
نفس المأمون . ويقال إن أبا تمام حين بلغ إليه النعى غمس طرف
رءائه في مداد وضرب به كتفيه وصدره وأنشد قصيدته المشهورة
فيه ومن جيد ما فيها قوله في وصف قتال ابن حميد في هذه
المعركة ، وشجاعته وإبلاته .

فقي مات بين الطعن والضرب ميتة

تقوم مقام النصر إن فاته النصر

وما مات حتى مات مضرب سيفه
من الضرب واعتلت عليه القنا السمير
وقد كان فوت الموت سهلا فرده
إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنه
هو الكفر يوم الروع أودونه الكفر
فأثبت في مستنقع الموت رجله
وقال لها من تحت إخمصك الحشر
ومن قصائد أبي تمام التي تروى في كل عصر قصيدته التي
مدح بها المعتصم بالله ووصف فيها فتوح عموريه . ومطلعها :
السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
ومنها في الرد على تخرصات الرهبان والمنجمين :
أين الرواية بل أين النجوم وما
صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصا وأحاديثا ملفقة ليست بنبع إذا عدت ولا غرب
لو بينت قط أمرا قبل موقعه لم يخف ما حل بالأوثان والصلب
ومنها يخاطب المعتصم ويصف نار الموقعة :

لقد تركت أمير المؤمنين بها
للنار يوما ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى
يقله وسطها صبيح من الذهب
حتى كأن جلايب الضحى رغبت
عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظماء عاكفة
وظلمة من دخان في ضحى شحب^(١)

لم تطلع الشمس فيه يوم ذاك على
بان بأهل ولم تغرب على عزب
ومنها في وصف سبايا الحرب :
كم نبيل تحمت سناها من منى قر
وتحمت عارضها من عارض شذب
كم كان في قطع أسباب الرقاب بها
الى المخدرة العذراء من سبب

(١) شحب بمعنى متغير

كم أحرزت قضب الهندى مصلته

تهتز من قضب تهتز فى كشب

بيض اذا انتضيت من حجبها رجعت

أحق بالبيض أبداناً من الحجب

ولما مدح أبو تمام الوزير محمد بن عبد الملك الزيات بقصيدته

التي يقول فى مطلعها :

ديعة سمحة القياد سكوبُ مستغيث بها الثرى المكروب

قال له ابن الزيات وكان من خول البلاغة وصيارفة الكلام :

يا أبا تمام انك لتحلى شعرك من جواهر لفظك وبديع معانيك

ما يزيد حسنًا على بهي الجواهر فى أجياد الكواعب، وما يدخر

شيء من جزيل المكافأة إلا ويصغر عن شعرك فى الموازاة

فيل وكان محضرته فيلسوف فقال : إن هذا الفتى يموت

شباباً . فقليل له ومن أين حكمت عليه بذلك ؟ فقال رأيت فيه من

الحدة والذكاء والفطنة مع لطافة الحس وجودة الخاطر ، ما علمنى

أن النفس الروحانية تأكل جسمه كما يأكل السيف المهند غمده .

وتبدأ القصيدة بوصف بديع للطر ، يرتفع فيه الشاعر إلى

آفاق عالية يجارى فيها السحاب المتهتون ويرمقه ويناجيه مناجاة

الأوداء الأصفياء ، بل إن نفسه لتتوثب وتتحفز لملاقاته
في عليائه ، وتتخيل الأرض وهي تكاد تجاريه في هذا التحفز
والشوق ، والخلق وهم يشار كونه شغفه وولوعه ومنها قوله .

لوسعت بقعة لأعظام نعى لسعى نحوها المكان الجديب
لذشؤ بوبها وطاب فلو تســــــــــــطيع قامت فعانقتها القلوب
فهى ماء يجرى وماء يليه وعزال تنشأ وأخرى تذوب
كشف الروض رأسه واستسر المحل منها كما استسر المريب
فاذا الرى بعد محل وجرجا ن لديها يبرين أو ملجوب
وقد شارك أبا تمام البحترى في مدح ابن الزيات ولهما فيه
القصائد البليغة .

ولد أبو تمام حبيب بن أوس الطائي بقرية جاسم من أعمال
دمشق سنة تسعين ومائة لأب من الروم اسمه ثدوس واعتنق
الاسلام حين بلغ سن الرشد وكان أسمر اللون طويل القامة في
حديثه متممة يسيرة . ويقال إنه المقصود بقول الشاعر .

يا نبي الله في الشعر ويا عيسى بن مريم
أنت من أشعر خلق الله ما لم تتكلم
ولا شك أن من يفهم الفلاسفة والشعراء في حضرتهم

ويبهرهم بحديثه في المواقف التي بينها فيما تقدم وفي كثير غيرها
لا تغض من حديثه تتمه يسيرة كالتى وصف بها أبو تمام .

والشطر الأول من هذين البيتين لا يقال فيمن كانت له
مكانته في الشعر وعلو قدمه ، فانهم إنما يعنون بكلمة نبي الله
في الشعر من لا يجيد قوله : إشارة إلى قوله تعالى : وما هو
بقول شاعر . ويقولون : فلان من بيت النبوة ، إذا أرادوا أن
يسلبوه موهبة الشعر . وهذا ما يسمونه الهجاء في معرض
المدح .

ومن مؤلفات أبي تمام غير ديوانه : كتاب الحماسة ، ويقال
إنه كتبه في همدان أثناء رحلته لعبد الله بن طاهر وإلى خراسان .
وقد أقام بها ينتظر زوال الثلج ، وكان قد نزل عند رجل لديه
خزانة كتب فيها دواوين العرب وغيرها ، فتفرغ لها وطالعها
وصنف منها خمسة كتب منها كتاب الحماسة . ويدكر أن
أبا تمام كان يحفظ من شعر العرب أربعة عشر ألف أرجوزة ،
غير المقاطيع والقصائد . وسواء أصبح هذا الكلام أو لم يصح فهو
يدل على اشتهاه أبي تمام بالرواية . ولكن الذى قد نشك فيه أو
تجد فيه بعض الغلو هو أن أبا تمام قد صنف كتاب الحماسة أو

ديوان الحماسة كما نسميه وأربعة كتب أخرى في ضيافته القصيرة عند ذلك الهمداني ، الذي أقام لديه ربما يزول التلج من طريقه وهو متأهب للسفر . فان اختيار مثل هذه الكتب من بين كلام العرب على النحو الذي نراه ، يحتاج إلى وقت غير ذلك الوقت الذي يقضيه المسافر العجل في ضيافة إنسان . . وقد كان أبو تمام على اتصال بذوى السكينة والصدارة من الخلفاء والأمراء والوزراء في بغداد والموصل فهو في غنية ، ولديه منادح للاطلاع والاختيار فضلاً عن روايته التي لا يلحقه فيها غيره ، وقد ألف كتاب الاختيار من الشعراء ، وفول الشعراء : ويجمع طائفة كبيرة من شعراء الجاهلية والمخضرمين والاسلاميين وله كتاب الوحشيات ونقائض جرير والأخطل

كان أبو تمام شاعراً بليغاً لم يتقدمه شاعر في حياته . وكان يذهب مذهب البديعيين في توشية الشعر وترصيعه وقد أكثر في شعره من لغة المجاز والتورية . وان كان إنما يذهب في هذا عن فطرة وطبيعة . ويظهر ذلك في بعض أحاديثه ورسائله إلى من يرتفع بينه وبينهم التكلف .

ومن إشارات الطريفة أنه أرسل يستدعي أحد أصدقائه

إلى الشراب وكان يسكر من قدحين فكتب إليه :
 إن رأيت أن تنام عندنا الليلة . فافعل . فكنى عن السكر
 بالنوم وقد غلب وصف أبي تمام بالحكمة لما ورد في شعره من الأمثلة
 والحكم حتى قيل المتنبي وأبو تمام حكيما والشاعر البحتري .
 ونحن نضع قصائده في وصف المعارك الحربية ومراثيه ووصفه
 للربيع والسحاب والمطر في المكان الأول . ونرى أن الحكمة
 تأتي عرضاً في شعره . فهو شاعر من أخصه إلى قمة رأسه .

وقد توفي أبو تمام بالموصل سنة إحدى وثلاثين ومائتين
 وبني عليه أحد بني حميد الطوسي قبة خارج باب الميدان على حافة
 الخندق ومات بعد موته دعبل الخزاعي الشاعر الهجاء وكان صديق
 البحتري فقال في رثائهما .

قد زاد في كفى وأوقد لوعتي	مشوى حبيب يوم مات ودعبل
أخوى لا نزل السماء مخيلة	تغشا كما بسماء مزن مسبل
جدت على الأهواز يبعد دونه	مسرى النعى ورمة بالموصل

ويقترن باسم أبي تمام اسم أبي عبادة البحتري :
 قال كان أول أمرى في الشعر ونباهتى أنى صرت إلى أبى تمام

وهو بمحضر فعرضت عليه شعري ، وكان الشعراء يعرضون
أشعارهم فأقبل علي وترك سائر من حضر ، فلما تفرقوا قال :
أنت أشعر من أنشدني ، فكيف حالك ، فشكوت اليه خلة .
فمكتب إلي أهل معرة النعمان وشهد لي بالحق في الشعر وقال
امتدحهم . فصرت اليهم فأكرموني بكتابته ، ووظفوا لي أربعة
آلاف درهم ، فكانت أول مال أصبته .

وروي عنه أنه قال : أول ما رأيت أبا تمام ، أني دخلت علي
أبي سعيد محمد بن يوسف فأنشدته القصيدة التي أولها ، « أأفاق
صب من هوى فأفيقا » وعدة أبياتها ثلاثة وسبعون بيتا فسر
أبو سعيد ، وقال أحسنت والله يا فتى ، وكان في مجلسه رجل نبيل
رفيع المجلس فوق كل من حضر . فأقبل علي وقال : يا فتى أما
تستحي ؟ هذا شعري تنتحلّه وتنشده بحضرتي ١١ فقال أبو سعيد :
أحقا تقول ؟ قال نعم ، وإنما علقه مني فسبقني به اليك . ثم اندفع
فأنشد القصيدة ، حتى شككتني علم الله في نفسي وبقيت متحيرا .
فأقبل علي أبو سعيد . وقال يا فتى لقد كان في قرابتك منا وودك
لنا ما يغنيك عن هذا فجعلت أحلف بكل محرجة من الايمان ،
أن الشعر ما سبقني اليه أحد ولا سمعته ، ولا انتحلته ، فلم ينفع

ذلك شيئاً . وأطرق أبو سعيد وفضع بي حتى تمنيت أني سبخت
في الأرض فقامت منكسر البال أجر رجلى . فخرجت . فما هو
إلا أن بلغت باب الدار ، حتى خرج الغلمان إلى قردوني . فأقبل
على الرجل وقال : الشعر لك يا بني ، والله ما قلت قط ولا سمعت
به الا منك ، واسكني ظننت أنك تهاونت بموضعي ، فأقدمت
على الانشاد بحضرتي من غير معرفة كانت بيننا ، تريد بذلك
مضاهاتي ومكائرتي ، حتى عرفني الأمير نسبك وموضعك
ولوددت ألا تلد طائفة الا مثلك . وجعل أبو سعيد يضحك .
فدعاني أبو تمام فضمني اليه وعانقني ، وأقبل يقرظني ولزمته بعد
ذلك وأخذت عنه ، واقتديت به

وحدث قال أنشدت أبا تمام شيئاً من شعري فتمثل بببيت
أوس بن حجر :

إذا مقرر مناذرا حد نابه تخمط مناناب آخر مقرر
ثم قال لي : نعت والله الى نفسي ، فقلت : أعينك بالله من
هذا القول فقال : إن عمري لن يطول ، وقد نشأ في طي مثلك ،
أما علمت أن خالد بن صفوان رأى شبيب وهو بين رهط يتكلم .
فقال : يا بني لقد نعتي إلى نفسي إحسانك في كلامك . لانا أهل

بيت ما نشأ فينا خطيب قط الامات من قبله . فقلت بل يبقيك
الله ، ويجعلني فداك . ومات أبو تمام بعد سنة .

وقد علا كعب البحترى وسما قدره في الشعر ، ولكنه كان
على الدوام يحفظ لأبي تمام حقه في التقدم ، ويراها صاحباً وإماماً ،
وكان يفضل على نفسه . ويروى انه أنشد شعراً لنفسه كان
أبو تمام قال مثله ، ف قيل له : أنت أشعر من أبي تمام في هذا
الشعر . فقال كيلا . والله إن أبا تمام للرئيس والأستاذ . والله
ما أكلت الخبز إلا به . قال المبرد وكان حاضراً : لله درك فأنتك
تأبى إلا شرفاً من جميع جوانبك

وبقي البحترى على إخلاصه لأبي تمام إلى أن مات وانفرد
بزعامة الشعر من بعده . وعاش الى أن أدرك الدولة في أوج كمالها .
ومدح الخلفاء والأمراء وكبار الرجال . وكان يستطرد في مدائمه
الى وصف المعارك الحربية والأحوال السياسية ، وقد ظهر في شعره
وصف الطبيعة والقصور ونواحي الترف المتعددة الألوان .
يزجيها في رقة وعذوبة تأخذ بمجامع القلوب .

فالبحتري وان كان مصوراً بارعاً ، يحمل الأصباغ والفرجون ،
إلا أنه في بديع نظمه ورقيق لفظه ، يحمل قيثار الموسيقى الشجية

الانعام ، وقد انتظم شعره كثيراً من حوادث العصر الذى عاش فيه ومن مدحهم البحترى من ا خلفاء : المتوكل والمعتز والمعتمد والمهتدى ، والمستعين ، ومن رجال الدولة : ابن الزيات وابن المدبر ومالك بن طوق والفتح بن خاقان ، واسماعيل بن نوبخت . والشاه بن ميكال وآل سهل ، وآل ظاهر وكثير غيرهم .

وكان يتقضى المال أين كان ، ويذهب في طلبه إلى كل مكان . حتى كثر ماله . وتعددت ضياعه ، ولم يصدده الاثراء عن طلب المال ، حتى أخريات حياته . وقد أخذ عليه أنه يكثر من مدح الأعاجم ويفضلهم عن العرب في بعض الأحيان . ومن قوله في ذلك من قصيدة يمدح بها إذ كوتسكين وقومه من بني ساسان :

متى لم يزك في العرب ارتيادى حططت إلى رباع الأعجمينا
نوالى معشراً قربوا إلينا ونثرى من تطول آخرينا
يبنو أعمامنا الدانون منا وواهبه النوال بنو أبنينا

وليس عجيباً أن يمدح البحترى الأعاجم وقد كان لهم أكبر شأن في الدولة . وقد اختتم سينيته بهذه الأبيات التى هى عندنا بمثابة الرد على من يأخذ عليه هذا المسلك :

ذاك عندي وليست الدار داري باقتراب منها ولا الجنس جنسي
غير نعمي لأهلها عند أهلي غرسوا من ذكائها خير غرس
أيدوا ما لمكنوا وشهدوا قواه بكما تحت السنور دعس
وأعانوا على كتائب أريا ط بطعن على النحور ودعس
وأراني من بعد أ كلف بالاشراف طراً من كل سنخ وجنس
وقد وصف البحري فوق حبه للمال بالبخل والكراسة . وكان
يلزم ابراهيم بن المدبر في كل سنة أن يسقط أ كثر خواجه أو
يؤديه عنه فأراد شراء ضيعة واستماح ابراهيم فلامه لكثرة ضياعه
وقال يكفيك ضياعك . فقد كثرت وعظمت ، فأشدد قصيدته
التي يقول في مطلعها :

سفاهما تمادى لومها ولجاجها واكثرها ممارأت وضجاجها
إلى أن بلغ قوله :

وما زالت العيس المراسيل تنبري فيقضي لدى آل المدبر حاجها
فأمر له بآتمام ماله . ومن رقيق قوله في هذه القصيدة مخاطباً
ابن المدبر :

فلا أمل إلا عليك طريقه

ولا رفقة إلا اليك معاجها

يد لك عندى قد أبر ضياؤها
على الشمس حتى كاد يخبو سر اجها
هى الراح تمت فى صفاء ورقة
فلم يبق للمصبوح إلا مزاجها
فان تلمحق النعمى بنعمى فأنه
يزين الآلى فى النظام ازدواجها
ومنها

وكنت اذا مارست عندك حاجة
على نكد الأيام هان علاجها
ولم لا أغالى بالضياح وقد دنا
على مداها واستقام اعوجاجها
اذا كان لى تريعبها واغتلاها
وكان عليك كمل عام خراجها

وكان ابن المدبر يقرب البحرى اليه ، ويغدق عليه المال
الكثير والثناء الوفير . قال الصولى : ذكر يوما ابراهيم بن المدبر
البحثرى ، فقال ما رأيت أتم طبعاً منه ، ولا أحضر خاطراً ،
مدحني حين تخلصت من الأسر وذكر الضربة التي في وجهي ،

وتخلص ومدح المأسور . وهذا حتى مارعاه قبله أحد .
وكان صاحب الزنج قد أسر ابن المدبر بالبصرة . وكان قد
ضرب في وجهه ضربة بقي أثرها حتى مات . وقد تخلص من
الأسر سنة ٢٥٧ . وفي ذلك يقول البحترى وهو ما أشار اليه
ابن المدبر .

ومدينة شهر المنازل وسمها
والخيل تسكبو في العجاج الكافي
كانت بوجهك دون عرضك إذ رأوا
أن الوجوه تصان بالاحساب
ولئن أسرت فما الأسار على امرئ
نصر الأسار على القرار بعاب
نام المضلل عن سراك ولم يخف
عين الرقيب وقسوة البواب
مارعاهم إلا امترافك مصلتا
عن مثل برد الأرقم المنساب
ومما يروى في بخل البحترى هذه القصة التي يرويها أبو مسلم
محمد بن الاصبهاني الكاتب . قال دخلت على البحترى يوما فخبسني

عنده ودعا بطعام له ودعاني اليه فامتنعت من أكله . وعنده شيخ
شامى لا أعرفه فدعاه الى الطعام فتقدم وأكل معه أكلًا عنيفًا
فغاضبه ذلك ، والتفت الى فقال لى أتعرف هذا الشيخ فقلت
لا . قال : هذا شيخ من بنى هجيم الذين يقول فيهم الشاعر :

وبنى هجيم قبيلة ملعونة حصى اللحم متشابهوا الألوان
لويسمعون بأكلة أو شربة بعمان أصبح جمعهم بعمان
إلا أنه مع ذلك كان يعف عن المال اذا جاءه من غير طريقه
المألوف أو رأى أن صاحبه يبذله مكرهاً .

حدث أبو الفضل عباس بن أحمد بن ثوابة قال قدم البحتري
النيل على أحمد بن الاسكافى مادحاً له فلم ينبه ثواباً يرصاه ، بعد
أن طالبت مدته فهجاه بقصيدته التى يقول فيها :

ما كسبنا من أحمد بن على ومن النيل غير حمى النيل
وهجاه بقصيدة أخرى أولها : قصر النيل فاسمعوها عجايبه .
جُمع الى هجائه أياه هجاء أبى ثوابه . وبلغ ذلك أبى فبعث اليه
بألف درهم و ثياب ودابة بسرجهما والجامها . فرد ذلك اليه وقال قد
أسلفتمكم اساءة لا يجوز معها قبول رفقكم . فكتب اليه أبى :
أما الاساءة فمخفورة ، وأما المخذرة فشكورة ، ، والحسنات

يذهب السبائات ، وما يأسوا جراحك مثل يدك ، وقد رددت
إليك ما رددته علي وأضعفته ، فان تلافيت ما فرط منك أثبتنا
وشكرنا ، وان لم تفعل احتملنا وصبرنا . . فقبل ما بعث به
وكتب إليه ، كلامك والله أحسن من شعري ، وقد أملتني
ما أخجلني وحملتني ما أثقلني ، وسيأتيك ثنائي ثم غدا إليه بقصيدة
أولها : ضلال لها ما ذا أرادت من الصد . وقال فيه بعد ذلك :
برق أضواء العقيق من ضرمه . وقال فيه أيضاً : وان دعا داعي
الصبا فأجابه . قال ولم يزل أبي يصله بعد ذلك ويتابع به لديه
حتى افترقا .

وروى صاحب الأغاني : أنه كان بحلب شخص يقال له
طاهر بن محمد الهاشمي مات أبوه وخلف له مقدار مائة ألف دينار
أنفقها على الشعراء والزوار فقصده البحرى من العراق فلما
وصل إلى حلب قيل له إنه قد قعد في بيته لديون ركبته فاغتم
البحرئى لذلك غما شديداً ، وبعث المدحة إليه مع بعض مواليه
فلما وصلتته ووقف عليها بكى ودعا بغلام له وقال له بع دارى .
فقال له أتبيع دارك وتبقى على رؤوس الناس . فقال لا بد من
بيعها . فباعها بثلاثمائة دينار فأخذ صرة وربط فيها مائة دينار

أنفذها الى البحترى وكتب اليه معها رقعة فيها هذه الأبيات
لو يكون الحباء حسب الذى أنست لدينا به محل وأهل
لحموت اللجين والدر واليا قوت حثوا وكان ذاك يقل
والأديب الأريب يسمح بالعذر اذا قصر الصديق المقل
فلما وصلت الرقعة الى البحترى رد الدنانير وكتب اليه :
بأبى أنت والله للبر أهل والمساعى بعد وسعيك قبل
والنوال القليل يكثر ان شا مرجيك والكثير يقل
غير أنى رددت برك إذ كان ربا منك والربا لا يحل
واذا ما جزيت شعراً بشعر قضى الحق والدنانير فضل
فلما عادت الدنانير اليه حل الصرة وضم اليها خمسين ديناراً
أخرى وحلف أنه لا يردها فلما وصلت الى البحترى أنشأ يقول:
شكرك أن الشكر للعبد نعمة

ومن يشكر المعروف فالله زائده

لكل زمان واحد يقتدى به

وهذا زمان أنت لاشك واحدة

وكانت خلافة المتوكل هي العصر الذهبي للبحترى . فقد
أحبه المتوكل وأعجب بشعره وقر به اليه وأغدق عليه من ماله

وبره الشيء الكثير . وتفتحت أبواب الشعر أمامه في قصور
اخلافة فوصف تلك القصور وما فيها من العظمة والسمو وما
احتوت من البساتين والغياض والمياه وفنون البزخ والترف في
عصر يعد بحق من أزهر عصور الدولة الإسلامية ، وأغناها
بالأموال والرجال . وقد وصف البحترى زمن المنوكل بقوله :
فكانما الدنيا هنالك روضة

راحت جوانبها تراح وتوبل

أوماترى حسن الزمان وما بدا

وأعاد في أيامه المتوكل

أشرقن حتى كاد يفتبس الدجى

ورطن حتى كاد يجرى الجندل

وهي أبيات تكاد تفيض رقة وعذوبة . وقال في وصف

الجعفرى من قصور المتوكل :

ملك تبوأ خير دار أتشئت فى خير مبدى للأنام ومحضر

مخضرة والغيث ليس بساكب ومضيئة والليل ليس بمقمر

ومنها :

فرفعت بنياناً كأن مناره أعلام رضوى أو شواهد صهيير

ملأت جوانبه الفضاء وعانت
وتسير دجلة تحته ففناؤه
شجر تلاعبه الرياح فتمننى
وهي أبيات صافية منغومة تدل على صفاء الطبيعة وابتهاج
النفس الشاعرة ، بما ترى وتلمس في تلك القصور ، بل الفرايس
الغناء .

وقد وصف البحري يركة الجعفرى بما لم يصل اليه شاعر من
سمو المعاني ودقة التصوير . مع رقة اللفظ وجمال الاسلوب .
ويقول فيها :

يا من رأى البركة الحسنة رؤيتها
والآنسات اذا لاحت مغايبها
بحسبها أنها فى فضل رتبها
تعد واحدة والبحر ثانيها
ما بال دجلة كالغبرى تنافسها
فى الحسن طورا وأطواراً تباهاها
ووصف الصبيح والمليح من قصور المتوكل بشعر لا يقل
بهاء وروعة عن شعره المتقدم ، ولازم المتوكل فى أسفاره كما

لازمه في مقامه . وقد أُنِج له في تلك الأسفار التي صحب المتوكل
فيها أن يصف الكثير من صور الطبيعة المختلفة الألوان
ومن قوله في وصف دخول المتوكل العراق بعد عودته
من دمشق

وما زال توخيد المهاري وطبها

بنا البعد من حزن الفلا وسهوله

إلى أن بدا صحن العراق وكشفت

مسجوف الدجى عن مائه ونخيله

يظل الحمام الورق في جنباته

يذكرنا أحيابنا بهديله

فأحبت محباً رؤية من حبيبه

وسرت خليلاً أوبة من خليله

بنعمى أمير المؤمنين وفضله

غدا العيش غصناً بعد طول ذبوله

ومن ظريف ما يروى ما رواه جحظة عن علي بن يحيى

المنجم قال :

اجتازت جارية بالمتوكل معها كوز ماء وهى أحسن من

القمر . فقال لها : ما اسمك قالت برهان . قال ولين هذا الماء .
قالت لستى قبيحة قال صديقه فى حلقى فشربه عن آخره . ثم قال
للبحترى . قل فى هذا شيئاً فقال :

ما شربة من رحيق كأسها ذهب

جاءت بها الحور من جنات رضوان

يوماً بأطيب من ماء بلا عطش

شربته عبثاً من كف برهان

وكان يروق للمتوكل أن يداعب البحترى ويعابثه حتى ينال
منه ، ثم يعود فيترضاه ويغدق عليه من الأموال هو وأمرأؤه
ما تفتتح له نفسه وينسيه الغضب . وان بلغ منه كل مبلغ .
حدث أحمد بن جعفر جحظة قال حدثنى أبو العنيس الصميرى .
قال كنت عند المتوكل والبحترى ينشد :

عن أى ثغر تبسم وبأى طرف تحسبكم
حتى بلغ إلى قوله :

قل للخليفة جعفر
المجتدى للمجتدى
إسليم لدين محمد والمتوكل بن المعتصم
والمنعم بن المنتقم
فاذا سامت فقد سلم

قال وكان البحترى من أبغض الناس إتشاداً يتشادق ويتزاور
 في مشيه مرة جانباً ومرة القهقري . ويهز رأسه مرة ومنكببيه
 أخرى ويشير بكلمة ويقف عند كل بيت . ويقول أحسنت والله .
 ثم يقبل على المستمعين فيقول ما ألكم لا تقولون أحسنت
 هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله :

فضجر المتوكل من ذلك وأقبل على وقال : أما تسمع يا صميرى
 ما يقول فقلت بلى يا سيدي فرنى فيه بما أحببت فقال بحياقني أهجه
 على هذا الروى . انشد فيه . فقلت تأمر ابن حمدون أن يكتب
 ما أقول فدعا بدواة وقرطاس وحضرني على البديهة أن قلت :

أدخلت رأسك في الرحم	وعلمت أنك تنهزم
يا بحترى حذار ويح	ك من قضا قضية ضنم
فلقد أسلت بوالد	يك من الهجاسيل العرم
فبأى عرض تعتصم	وبهتسكه جف القلم
والله حلفة صادق	وبقبر أحمد والحرم
لأصيرنك شهرة	بين المسيل الى العلم
حيث الطلول بنى سلم	حيث الاراكية والخيم
يا ابن الثقيلة والنقي	ل على قلوب ذوى النعم

وعلى الصغير مع الكبير من الموالى والحشم
فى أى سلخ ترتطم وبأى كف تلتطم

قال فغضب وخرج يعدو وجعلت أصرح به :
أدخلت رأسك فى الرحم وعامت أنك تنهزم
والمتوكيل يضحك ويصفق حتى غاب عن عينه . قال أحمد
ابن زياد فحدثنى أبى قال جاءنى البحرى فقال لى يا أبا خالد أنت
عشيرتى وابن عمى وصديقى وقد رأيت ما جرى على أفتاذن لى
أن أخرج الى منبج (بلد البحرى) بغير إذن فقد ضاع العلم
وهلك الأدب . فقلت لا تفعل من هذا شيئاً ، فإن الملوك تمزح
بأعظم مما جرى ومضيت معه الى الفتح (وزير المتوكيل) فشكا
اليه ذلك . فقال له نحواً من قولى ووصله وخلع عليه فسكن
الى ذلك .

ولكن هذا العهد الزاهر الذى نعم به البحرى فى ظل
المتوكيل لم يكن ليديم . إذ أن الدهر كان للمتوكل بالمرصاد .
وكانت الحياة تحبى له وراء ذلك النعيم الذى رفل فى محبوبته
ردحاً من الزمن حادثاً نكراً لم يكن ليخطر لأحد على بال فى ذلك

العصر الذى بسط فيه المتوكل رواقه على كل ما فيه من عز
ورفاهية . وانتفع به كل من كان يمت اليه بصلة .

وكأنما الزمان الذى عزف على قيثارة البحترى قصائده البديعة
فى مباحج الحياة ونعيمها فى ظل المتوكل . أراد أن يعزف على
نفس القيثارة أناشييد الألم المعض والحزن الأليم .

قال البحترى بعد حديث سابق . . . وسكر المتوكل
سكراً شديداً وكان من عادته أنه اذا تمايل عند سكره أن يقيمه
الخدم الذين على رأسه ، قال فبينما نحن كذلك ومضى نحو ثلاث
ساعات من الليل إذ أقبل باغر ^(١) ومعه عشر نفر من الجنود
الأتراك . وهم متلثمون والسيوف بأيديهم تبرى فى ضوء تلك
الشموع . فجمعوا علينا وأقبلوا نحو المتوكل حتى صعد باغر
وآخر معه من الأتراك على السرير فصاح بهم الفتح : ويلكم !
مولاكم . فلما رآهم الغلمان ومن كان حاضرا من الجلساء والندماء
تطايروا على وجوههم . فلم يبق أحد فى المجلس غير الفتح وهو
يحاربهم ويمنعهم ، قال البحترى : فسمعت صيحة المتوكل وقد

(١) فنى من الأتراك كان قد اتخذ المتوكل لحراسته ودفع اليه بسيف
ثمين ليقيم به على رأسه .

ضربه باغر بالسيف الذي كان المتوكل دفعه اليه على جانبه الايمن
فقد إلى خاضرته ، ثم ثناه على جانبه الايسر ففعل مثل ذلك ،
وأقبل الفتح يمانعهم عنه ، فبجعه واحد منهم بالسيف الذي كان
معه في بطنه فأخرجه من متنه ، وهو صابر لا يتنجس ولا يزول ،
قال البحري : فما رأيت أحدا كان أقوى نفسا ولا أكرم منه ، ثم
طرح نفسه على المتوكل ، فماتا معاً ، فلما في البساط الذي قتلا
فيه ، وطرحا ناحية . فلم يزالا على حالتهم في ليلتهما وعامة
نهارهما حتى استقرت الخلافة للمنتصر فأمر بهما فدفنا جميعا .

وقد كان بغا الصغير توحش من المتوكل . فكان المنتصر
يجتذب قلوب الأتراك ، وكان أوتامش غلام الواثق مع المنتصر ،
فكان المتوكل يبغضه لذلك ، وكان أوتامش يجتذب قلوب
الأتراك إلى المنتصر . وعبيد الله بن خاقان الوزير والفتح
ابن خاقان منحرفين عن المنتصر مائلين إلى المعز ، وكانا قد أغرا
قلب المتوكل على المنتصر . فكان المنتصر لا يبعد أحد من
الأتراك إلا اجتذبه . فاستمال قلوب الأتراك وكثيرا من الفراعنة
والأشعرسية إلى أن كان من الأمر ما كان .

ولم يكن لير هذا الحادث حتى سجله البحري بقصيدة من

أروع شعره . وصف فيها قصر الجعفرى وعموده وتغير الزمان
له بعد ساكنه ووحشته ووصف السلال القتل اليه خفية ونزالتهم
وحقارتهم وصور اغتيال المتوكل فى صورة قوية رزينة . وهدد
القتلة وتوعدهم وحمل على محرضيهم فى شجاعة وجرأة . ويقول فى
مطلع هذه القصيدة :

محل على القاطول أخلق دائره
وعادت صروف الدهر جيشا تفاوره
كأن الصبا توفى نذورا إذا انبرت
تراوحه أذيالها وتباكره
ومنها :

تغير حسن الجعفرى وأنسه
وقوض بادی الجعفرى وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءة
فعادت سواء دوره ومقابره
ومنها :

تخفى له مقتاله تحت غرة
وأولى لمن يغتاله لو يجاهره

فما قتلت عنه المنايا جنوده
ولا دافعت أملاكه وذخائره
تعرض نصل السيف من دون (فتحه)
وغيب عنه في خراسان (طاهره)

ومنها:

ومغتصب للقتل لم يخش رهطه
ولم تحتشم أسبابه وأواصره
صريع تقاضاه السيوف حشاشه
يجود بها والموت حمر أظافره
أدافع عنه باليدين ولم يكن
ليثني الأعادى أعزل الليل حاسره
ولو كان سيفي ساعة القتل في يدي
درى الفاتك العجلان كيف أساوره
حرام على الراح بعدك أو أرى
دماً بدم مجرى على الأرض مائره

ومنها:

أكان ولي العهد أضمر غدره فمن عجب أن ولي العهد غادره

فلا ملى الباقي تراث الذى مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره
وقد كان لهذا الحادث أثر شديد فى نفس البحترى وفى حياته
ومشعره فاما حجب عنه قصر الجعفرى باحتجاب صاحبه وانصرفت
عنه ضروب اللهو والمرح ، وانصرف عنها . حملته قدماء الى
ايوان كسرى ، فمشى يطلع اليه ويتهافت ، وهو يحمل فى نفسه
تلك الذكريات الاليمه والصور الدارسة فى عالم الحس ومكانها
قائم فى صميم قلبه وإنسان عينه . وفى هذا الايوان نظم سمينيته
التي تعد خير ما أنتجته قريحه البحترى ويقول فى مطلعها :

صننت نفسى عما يندس نفسى وترفعت عن جدى كل جبس
وتماسكت حين زعزعنى الدهر التماسا منه لتعسى ونكسى
ومنها ويدكر السبب الذى دحاه الى زيارة الايوان :

حضرت رحلى الهموم فوجهم ت الى أبيض المدائن عنسى
أنسلى عن الخطوب وآسى لحل من آل ساسان درس
ذكرتهم الخطوب التوالى ولقد تذكر الخطوب وتنسى
وأتابع هذه الآيات بوصفه البليغ للايوان وتصوير ماضيه
وحاضره وكأنما كان يذكر قصر الجعفرى وهو يقول فى وصف
الايوان .

يتظنى من الكتابة أن يبدو لعيني مصبح أو ممسي
مرعجاً بالفراق عن أنس إلف عز أو مرهقا بتطليق عرس
عكست حظه الليالي وبات المشتري فيه وهو كوكب نحس
إن ما في هذه القصيدة من الصور والاحساسات ليرفعها
الى أسمى مراتب الشعر الذي عرف في سائر اللغات .

ولكى نتبين وجوه النظر في شعر الشاعرين يجب أن
نرجع الى نشأة النقد عند العرب وسنتناول ذلك بالبحث في
الفصل القادم .

والبحترى هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الله البحتري الطائي
ولد بمنbij سنة ٢٠٦ هجرية . ونشأ في البادية بين قبائل طيء
وغيرها . لذلك غلبت عليه فصاحة العرب وكانت وفاته سنة ٢٨٤
وقد عاش بعد وفاة أبي تمام زمنا طويلا وحضر عصوراً لم
يحضرها أبو تمام ، وشاهد ما لم يشاهده من صنوف الترف
والبرزخ . ورأى ما لم يره ووصف ما لم يصف .

وكان الشاعران الشغل الشاغل لنقاد العرب . ومن تلام
حتى العصر الذي نحن فيه . مما منعرض له في موضعه من هذا
الكتاب .

نشأة النقد عند العرب

لم يكن للعرب مذاهب في النقد يستطيع الباحث أن يتتبعها ويشرحها واحدا فواحدا ، ويقارنها بغيرها مما أنتجته القرائح في العصور الأخيرة .

فقد ظل النقد عندهم مقصورا على اللفظ البديع والقالب البليغ وحسن السبك والانسجام والمبالغة في التعبير عن المعنى المقصود ، حتى كان يفضل البيت من الشعر أو القصيدة ، وتعطى حقها من المدح والثناء بقدر نصيبها من ذلك .

خدم مثلا كتاب ابن رشيق ، العمدة في نقد الشعر وصناعاته ، وهو أكبر كتاب في النقد ، قال فيه ابن خلدون ، إنه أوعى وأجمع كتاب في النقد لم يساوه بعده ولا قبله كتاب آخر ، وكتاب الصناعتين ، لابن هلال العسكري . وكتاب قدامة ابن جعفر في نقد الشعر ، وكتاب الوساطة بين المقتني وخصومه ، وكتاب الموازنة للآمدي . فانك ترى هذه الكتب التي تعد أخص المؤلفات بالنقد وأشهرها ، لا تكاد تتعدى البحث في اللفظ والقالب وأنماط من البلاغة والبيان على نحو ما أسلفنا . ولقد

ظل النقد العربي لا يتناول التطور ولا يعتريه التغيير في مختلف
العصور . ولم يفكر العرب في تحويل مناحي النقد يوما من الأيام ،
بل كانوا أشد محافظة وتمسكا بالبلاغة اللفظية بعد ظهور الاسلام
وفي العصور المتأخرة مما كانوا قبل ذلك ، لاحتياجهم إليها لفهم
مراد القرآن الكريم ، ومعرفة مراميه . حتى صارت البلاغة
أداة من أدوات الدين ، ونوعا من أنواع الفقه .

روى الجاحظ عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أنه قال
كفاك من علم الأدب أن تروى الشاهد والمثل .

ومن ثم كان الانصراف إلى شعراء الجاهلية ، والتعصب
لهم والوقوف عند ما يقولون . مما حد الأفكار وعقد القرائح
ووقف تيار البلاغة ، ومنع حركة التجديد إلى حد كبير .

وكان عمرو بن العلاء لا يروى شعرا للمحدثين . قال
الأصمعي : جلست معه ثمانى سنين ، فاستمعته يحتج ببديت
إسلامي . وسئل عن المولدين فقال : ما كان من قبيح فهو من
عندهم وما كان من حسن فهو من عند غيرهم . وكذلك غير ابن
العلاء كثيرون . ولا يزال إلى الآن من ينحو هذا النحو .

فالنقد هو المنارة التي تتجه نحوها سفينة التفكير في أى عصر من العصور ، بل هو سكانها الذى يوجهها حيث يشاء ، ويعدل بها عما لا يشاء ، ويرسبها إلى الشاطئ الذى يريده لها .
فتى كان النقد عميقا والتفكير فيه قويا . وآراء الناقدين حية تتحرك وتنمو على سنة التطور . شأن كل حى فى الوجود ، فانها دافعة بالآداب إلى معارج التقدم ، ومراقى الفلاح . وعلى النقيض من ذلك كلما كان الأمر على العكس .

كان من الطبعى أن يتسم النقد العربى بهذا الميـسم ، ويتكون الذوق فيه على هذا النمط . فالعرب بطبيعة بلادهم الجافة ومعيشتهم البدوية فى تلك الجزيرة المترامية الأطراف . قوم رحل يتنقلون من مكان إلى آخر ، فى الصحراء ذات الطول والعرض . ينتجعون السكلا ويشن بعضهم على بعض الغارات . فلا فخر إلا للقوة والذود عن الأعراض ، وحماية الجار ، وإيواء الضعيف . وغير ذلك مما هو قين بتلك البداوة .

فتلك صفات خلعتها عليهم البيئة وطبعتهم بطابعها فكان من حق النقد أن يأخذ بنصيبه منها . بل كان من حقه أن يتسم بها تماما . فالتفاخر بالقوة وشن الغارات . والذود عن الأعراض ،

يقتضى المبالغة في الأقوال ، والتفنن في العبارات المضخم ، التي
من شأنها أن توقع التأثير في النفوس .

ولا غرابة إذن اذا كانت تلك الطبيعة البدائية . والفطرة
البسيطة تستهويها الألفاظ وتستثيرها العبارات . فهي تسير مع
العاطفة أينما سارت ، وتنقاد للوجدان حيث كان . وتعرض عن
التعمق والاستقصاء . ولا لوم في ذلك ولا تريب . فتلك السنة
التي لا مفر منها والنتيجة المقررة في مثل أحوالهم .

لا يسع الباحث في تاريخ العرب إلا أن يتفق معنا على أن
لهم مزاجاً معيناً ، وصفات معلومة ، خلعتها عليهم طبيعة بلادهم
كما أوضحنا . . . فتلك أمة يغلب عليها التأثر والانفعال ويظهر
فيها الطرب والحجاسة بأجلى معانيهما . تستميلها الكلمات
وتستثيرها العبارات . وتستفزه المبالغة ، بما لم يسمع بمثله عند
غيرها من الأمم . ولما كان هذا شأنهم ، كان من السهل أن نرى
النقد ينساب في هذا التيار من التأثر والانفعال والطرب
السريع . فلا يكاد يقرع البيت أذن بعضهم حتى يصيح ، هذا
خير ما قالته العرب ، أو هذا أغزل بيت قالوه أو أمدح بيت

أو أهجاه . أو هذا ما لا يستطيع أن يقوله أحد . ويسأل المطلع
أو الحجة من أشعر الناس ؟ فسرعان ما يجيب السائل بيت
من الشعر قد رفع صاحبه وجعله أشعر الناس . فأى بيت
يضع صاحبه في هذه المرتبة التي تسمو به إلى هذه المكانة
الرفيعة ؟ أى بيت من الشعر ، يريح صاحبه من عناء الشهرة
والسعى المتواصل في سبيل العظمة والخلود ؟

إنه التأثير هو الذى يملئ مثل هذه الأحكام . وإذا ذكرنا
الطبيعة العربية واتخذنا منها قاعدة ، وجب علينا أن ننظر
إلى الموضوع من كافة نواحيه لنصل بذلك إلى حقيقة ثابتة
يمكن الاعتماد عليها في فهم تلك الطبيعة فهما لا يعتوره النقص
ولا يتسرب اليه التريب .

قلنا إن لعاطفة الحماسة والتأثر المكانة الأولى في تكوين
الخلق العربى الذى يصطبغ بصبغته الأدب ثم النقد . وليس أقطع
في الدلالة على هذه الطبيعة وانبثاقها في أخلاق العرب القدامى
وعاداتهم وأعمالهم بل وكل شيء لهم من تأثير الكلام في تلك
النفوس .

كان الشاعر ينزل في القبيلة فيمدحها بقصيدة أو بيت من

الشعر فيكون نصيبها أن يعلو قدرها وترتفع مكانتها ، وتنفرد
بالمجد من غير ما سبب إلا أن هذا الشاعر ألم بها في يوم من الأيام
فأحسن القوم ضيافته وأكرموا منواه ! وهذا امرؤ القيس
ينزل بئيم فيضيفونه ويكرمونه وفادته فيقول فيهم :

أقرحشا امرئ القيس بن حجر بنو تميم مصاييح الظلام
فتسمو هذه القبيلة ، وترتفع مكانتها ، ويصبح هذا الاسم
عاما عليها : مصاييح الظلام .

وقد يعترض بامرئ القيس لسمو مكانته ومقامه من
الملك . فنسوق طائفة مقنعة في هذا الباب لا يبقى معها سبيل
إلى الشك في أن ذلك إنما كان ناشئا من تلك السجية المتجسمة
وذلك الطبع المتأثر

فهذه قبيلة أنف الناقة كانت تفرق من هذا الاسم وتعاب
به ، حتى جاء أحدهم وهو بغيض بن لؤي بن شماس بن جعفر
أنف الناقة فنقل الخطيئة من ضيافة الزبرقان بن بدر إلى ضيافته
وأحسن إليه فقال فيهم أبياته المشهورة :

سيري أمام فان الأكرمين حصا
والأكرمين اذا ما ينسبون أبا

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم

ومن يساوى بأنف الناقة الدنيا

فصاروا يتناولون بهذا النسب ويمدون به أصواتهم في جهرارة
وكانت هذه الأبيات سبباً في رفعتهم . وهؤلاء بنو نمر قد
وضعهم بيت جرير وكسر نسبهم ، وكانوا جرة من جرات
العرب كما يروى اذا سئل أحدهم : ممن الرجل ؟ نخم لفظه ومد
صوته وقال : من بني نمر .

وهذا الأعشى يمدح المخلوق وهو رجل فقير خامل الذكر ،
ذو بنات فما يكاد يتم قصيدته حتى ينسل الناس الى الرجل مهتئين
والإشراف من كل قبيلة يتسابقون اليه جرياً يخطبون بناته .
فلا تسمى منهن واحدة إلا في عصمة رجل أفضل من أبيها ألف
ضعف والقصيدة مشهورة يقول في مطلعها :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق

وما بي من سقم وما بي معشق

ومنها :

نفى الذم عن آل المخلوق جفنة

كجارية الشيخ العراقي تفهق

ترى القوم فيها شارعين وبينهم
 مع القوم ولدان من النسل دردق
 لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة
 إلى ضوء نار بالبفاع تحرق
 تشب لمقرورين يصطليانها
 وبات على النار الندى والمخلق
 وأكبر من ذلك في إبراز تلك الطبيعة أبيات البسوس .
 لعمرى لو أصبحت في دار منقذ
 لما ضيم سعد وهو جار لأبياتي
 ولكنني أصبحت في دار غربة
 متى يعد فيها الذئب يعد على شاتي
 فيا سعد لا تفرر بنفسك وارتحل
 فانك في قوم عن الجار أموات
 ودونك أذوادى نخذها وواتني
 براحلة لا يغدرون ببنياتي
 وتسمى عند العرب بأبيات الفناء ، وقد قامت بسببها حرب

بسوس المعروفة . وغير ذلك كثير مما لو أردنا حصره ضاقت
ه صفحات هذا الكتاب .

هكذا كانت العاطفة العربية شديدة التأثير بالقول كثيرة
الاعتداد به . ولا يستطيع الباحث إلا أن يسلم بذلك .

وأسوق على سبيل التفككة في هذا الباب ذكر حمام برقة
وذلك أن امرأة كان لها حمام يدعى حمام برقة وكان لا يرده أحد ،
ولا يعطف عليه إنسان . وفي جواره حمام آخر يسمى حمام منجاب ،
قد انفرد بالزائرين من كل مكان . فاتفقت صاحبة حمام برقة هذا
مع أحد الشعراء فكتب لها هذا البيت على بابه :

حمام برقة لا حمام منجاب حمام برقة سخن واسع الباب

فانتقل الناس إلى حمام برقة حتى كاد يضيق بهم .

واذا تبين لنا ذلك المزاج في خلق العرب لا يمكننا إلا أن
نحكم بأنه كان للعواطف محل كبير عندهم . فتلك الطبيعة
الحادة تلك النفوس المتأثرة لغير ما شيء إلا ما يقوله شاعر من
بيت أو بيتين أو أبيات فلا تلبث أن تزلزل الأرض أو تسكفر
السماء ، وينحط قوم ويرتفع آخرون . تلك الطبيعة ولا شك
طبيعة الحامية والحمية ، طبيعة التأثير والانفعال اللذين ينطبع

بهما ذلك الأدب ، ويسير على قصدهما النقد في مختلف العصور .
فاذا كانت للنقد أبواب عند العرب ، فأنها لا تقصد إلا من
هذا الطريق . وإذا كان له قصد ، فانه لا يمهده إلا على هذا
الأساس . ولا بدع فتلك سنتهم وعليها وضع الحجر الأساسي للنقد
فالعربي يفتن بالالفاظ ، ويطرب للعبارات ، وتستميله
المبالغات حتى صرح أن يقول بعضهم : خير الشعر أ كذبه . وصرح
أن يمدح الشعر أو يذم على هذه الطريقة من الفهم . وها هو بيت
حسان بن ثابت :

لنا الجففات الغر يامعن بالضحى

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

أنظر كيف تناوله النقد العربي قديما وأى عيب استخرجه
منه سوى بعده عن المبالغة . فالجففات عيب كبير في البيت وكان أولى
للشاعر أن يقول الجفان . ولماذا ؟ لأن الجفان أكثر من الجففات
وكذلك يامعن . كان الأصح أن يقال في البيت يبرقن ، ويططرن
يجرين أو يسبلن . فأنت ترى أن النقد لم ينظر الى البيت
إلا من حيث عدم المبالغة ، ومن حيث أن الشاعر لم يسر على
طريقة الغلو .

ولقد كان من العرب من يقول بخلاف ذلك ، إلا أن الذكاء
لا يقهر الطبيعة ، وهو وإن تغلب عليها في بعض المواقف ، فلا بد
أن ينكص على عقبيه لتظهر وتتجلى بكل معانيها . وليس أبلغ
في الدلالة على ذلك من هؤلاء الذين يقولون بمذهب الصدق وعدم
الغلو منهم فهذا حسان بن ثابت تراه يقول .

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا
ثم لا تلبث الطبيعة أن تتغلب عليه في كثير من أقواله
وأقربها قوله :

لساني وسيفي صارمان كلاهما

ويبلغ ما لا يبلغ السيف مذودى

وهو في الحقيقة من أبعد الناس عن حمل السيوف كما يقولون
ولم يشهد مع رسول الله مشهداً واحداً . وكذلك كان النقاد ممن
يقولون بالصدق وعدم الغلو . لا تلبث أن ترى بعضهم يكذب
نفسه بنفسه فيما يفضله ويختاره ويتمثل به . ومهما يكن من
الأمر فهؤلاء وإن لم يخرجوا الفكرة إلى حيز العمل فلمهم فضل
التفكير فيها .

لقد كان العرب فيما رأيناه لا يعرفون القصيدة ، إلا من

حيث أنها أبيات منسقة منسجمة على قافية ووزن واحد، لكل بيت معنى مستقل بذاته لا علاقة له بما يليه إلا من حيث الوضع. فإذا صرفت نظرك عن ذلك. فانك لا تجد الا أبياتاً متفرقة، مرصوفاً بعضها تلو بعض. ومن ثم انثال النقد في هذا التيار. فكان الناقد العربي يلم بالقصيدة بيتاً بيتاً، ويحلل ما يشاء منها على حدته من حيث اللفظ والقالب ومطابقة المعنى لمقتضى الحال. أما القصيدة أو المعنى الذي يعدو البيت أو البيتين فهذا ما لم ينظر اليه. ولو تنبى لبعض الشعراء ما أعاره أى التفات ولم يخل الأدب العربي من قصائد أو أبيات على هذا النحو، لم يتناولها النقد كقصائد أو أبيات لها معنى مطرد متسلسل لا يفهم إلا اذا اجتمعت أجزاءه. نعم لم يتنبه النقد الى شيء من ذلك بل كان الناقد يأتى الى القصيدة من هذا الطراز، فيخرج منها أبياتاً منفردة يمدحها، أو يهجنها على قدر نصيبها من الاتساق والسير مع الأساليب العربية البليغة ومراعاة الظرف والمقتضى، وصحة المقابلة والتقسيم والتفسير والمبالغة والتكافؤ الى آخر ما هنالك مما لا علاقة له بالقصيدة من حيث هي.

هذه نشأة النقد وسننه التى درج عليها. وقد توالى العصور

ولم يعترها أى تغيير . حتى لقد صار الشعر لا ينظر اليه فى
الاكثر الا باعتباره محض أساليب وقوالب قديمة ينتبع الشاعر
خطى أربابها وينسج على منوالهم . وليس له الا فضل المحاكاه
فاذا شد عن ذلك أو نزع الى شىء من التجديد عد نزوعه خروجاً
على الشعر وقواعده كما قالوا فى أبى نواس والمتنبى وابن الرومى
والمعرى وأبى تمام وأمثالهم ممن أرادوا التحرر من ربة القديم
ولم ترض طبائعهم الوقوف عند حد المحاكاه . ويرجع هذا الى فهم
العرب للشعر والمعانى الشعرية . فهم يفهمون الشعر وينقدونه
كذلك على نحو خاص لا تكاد ترى له علاقة بما هو معروف عند
غيرهم . فكلمة الشعر تدل على معنى اصطلاحى اعلميه . فلا يفهم
منها شىء آخر . ومن ثم كان كل خروج على هذا المعنى خروجاً
على الشعر العربى . وليس من حق كائن أن يتصرف فى مفهومه .
فكل انحراف أو تعديل يخرج به عن حيزه الذى وضعه العرب
يعتبر خروجاً على معناه .

ومن ثم لم يعترف أكثرهم لغير العرب بالشعر . ولم يعنوا
بأشعار اليونان وغيرهم . أو مجاراتها والاخذ عنها . وليس فى ذلك
من بأس . اذ أن الشعر عندهم شىء غير ذلك الشعر . وانما يرجع

كما يقول ابن خلدون . الى صورة ذهنية للتراكيب المنظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص . وتلك الصورة ينتزعاها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ، ويصيرها في الخيال ، كالأقالب أو المنوال ، ثم ينتقى للتراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الأعراب والبيان . فيرصها فيه رسا كما يفعل البناء في الأقالب ، أو النساج في المنوال . حتى يتسع للأقالب بمحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام . ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه . فان لكل فن من الكلام أساليب تختص به . وتوجد فيه على أأنحاء مختلفة ... الى آخر ما هنالك . وإننا نعلل ذلك بما بيناه من إرخاص المعاني . وفهمها ذلك الفهم . ثم اعتقادهم إن المتقدمين سبقوهم إلى كل شيء فلم يبق إلا تقليدهم . وتقليدهم في ماذا ؟ في الأساليب وطرق القول لأن المعاني لا قيمة لها ويوجد منها عند الجاهل مثل ما يوجد عند العالم كما أسلفنا . ولا يفهم من هذا أنه لم يكن هنالك أناس يفهمون تطور الشعر والتجديد فيه بحسب الزمان والمكان . فقد كانت هناك معركة تدور رحاها حول القديم والجديد كما هو حاصل الآن ، ومما يروى في هذا المعنى قول أبي تمام .

فلو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت

حياضك منه في العصور الذواهب

ولسكنه صوب العقول إذا انجلت

سحائب منه أعقبت بسحاب

وقوله في قصيدة :

يقول من تقـرع أسماعه كم ترك الأول للآخر

رداً على قولهم ما ترك الأول للآخر من شيء .

وكذلك قول أبي نواس :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

لا نخدعن عن التي جعلت سقم الصحيح وصحة السقم

تصف الطلول على السماع بها أفذوالعيان كأنت في الحكم

واذا وصفت الشيء متبعاً لم تخل من جهل ومن عقم

وقد كان بعض النقاد والعلماء بالشعر يقولون بالزمان والمكان

والتجديد إلا أن فهمهم للشعر لم يعد الاستعارة والتشبيه والمثل

السائر وما يجري مجرى ذلك . فهم ليسوا بأحسن حظاً من

غيرهم في هذا المقام . ولقد ظل النقد مقصوراً على البيت دون

القصيدة الى وقتنا هذا وعند الكثيرين .

قلت إن العرب شغفوا بالشعر وأولوه المكان الأول من
اهتمامهم . ولم تكن كثرة الشعراء لديهم لتنقص من قيمته
لديهم . بل إنك ترى الأمر على النقيض من ذلك . فقد كانت
كثرة الشعراء سبباً في تفشيهِ بينهم وانشغال الجميع به ملوكا
وسوقة . علماء وجهلاء أشرفا فاضعا اليك . بل لقد كان من
الخصوص وقطاع الطرق من يشتغل به ويقوله .

ولا جرم في أمة كالأمة العربية مع ما اشتهر به أهلها من
الفصاحة أن يكونوا كلهم شعراء ما دام الشعر هو نظم ما يتكلمون
به . والذي يهمنا هنا أن نعرف نصيب النقد في أمة عظيمة جل
أهلها شعراء .

لقد كان شغف العرب بنقد الشعر يعادل حبهم له . فأنتم
لا تكاد ترى مجلسا للشعر يخلو منه . . . كانوا يختلفون في البيت
فيرحل بعضهم الى حجة أو ثقة فيمنحون ببابه ، فيسألونه عنه
ثم يعودون . بل لقد كان للشعراء أسواق مشهورة ينشد فيها
الشعر وينقد . فترى القوم فيها يتبارون ويتلاحون ثم يعودون
ومنهم الظافر والمخدول . وكانت ترفع قبة لنايعة بنى ذبيان في
سوق عكاظ يجلس فيها ويمر به الشعراء معهم قصائدهم ينقدها

واحدة فواحدة ، ويبدى رأيه فيها . والناطقة يعد من أكبر نقاد
الشعر في الجاهلية كما هو من أكبر شعرائها . ومن رأيه فيه
الكذب والغلو . وينسبون اليه النقد المعروف لبنت حسان :
لنا الجففات الغر يلعن في الضحى . وينسبه بعضهم الى الخنساء
وهو الى الناطقة أقرب .

وكان من البدهى في مثل هذه الحال أن يهتم النقاد بترتيب
الشعراء ومعرفة درجاتهم وأيهم أشعر العرب . فقد كان هذا من
أكبر همهم . وهم وان كانوا يختلفون في هذا كثيراً الا أن
أكثرهم على تقديم امرئ القيس . وأخبر عيسى بن يزيد عن
ابن عباس رضى الله عنهما قال . قال لى عمر انشدنى لأشعر شعرائكم
قلت من هو يا أمير المؤمنين . قال زهير وكان كذلك . قال كان
لا يعاقل بين الكلام ولا يتبع حوشيه ولا يمدح الرجل الا بما
فيه . ويقول بعضهم بتفضيل الأعشى وبعضهم بتفضيل غيره .
على أنك اذا أردت أن تحصر آراءهم في ذلك أعياك الأمر وعرفت
أن لكل شاعر منهم من يفضلّه ويقدمه على الجميع ومن لطيف
ما يروى أن مروان بن حفص سمع يوماً جمعا من الشعراء . فكان
يخرج أحدهم فيقول هذا أشعر الناس ، ويسمع الآخر فيقول

هذا أشعر الناس . الى أن كثر ذلك منه فقال الناس أشعر الناس
وجاء النقد فيما بعد فرتبوا الشعراء الى طبقات وتكلموا
عن شعراء كل طبقة شاعراً شاعراً ، وما يمتاز به كل واحد منهم
وألفوا في ذلك الكتب والرسالات مخصص بالذكر منها كتب طبقات
الشعراء . ويعرضهم في عشر طبقات ، يبتدئون بأصحاب
المعلقات ثم يتكلم بطريقة موجزة عن كل منهم . وهذا فرع
من النقد لم يتقدم بأكثر من ذكر القليل المجمل عن الشاعر في
عبارات مسجوعة . ينقصها الوزن لتكون كألفية ابن مالك .
ولم يعرف العرب في هذا الباب تفصيل حياة الشاعر ومزاجه
والوسط الذي يعيش فيه . والحوادث التي اصطدمت بحياته .
وتأثير كل ذلك في نفسه وبيان الصلة بين الشاعر وشعره ،
وهم على ما هو مشهور عنهم من حفظ الأنساب والتواريخ .
وهذا نوع من النقد يبين العلة والمعلول في الشعر . بطريقة منطقية
دقيقة يقصد بها فهم الشاعر وإنصافه .

نعم لم يعرف العرب الأقدمون هذا النقد وانك ترى أحدهم
ينقد الشعر بما في نفسه . ويقيده بما يهواه وليس له شأن بالموضوع
في ذاته وفي ذات صاحبه . وكثيراً ما عابوا شعراً لا يرى القيس

وإني نواس وغيره لموضوعه وليس لجودته أو رداءته . فمحب
النساء والخمر يعاف الزهد والحكم ، ومحبهما يعاف القول في
النساء والخمر . وهذه طريقة في النقد تجعل كل شعر يمدح أو
يذم وفق أمزجة النقاد وأخلاقهم . والأمزجة تتعدد والأخلاق
تختلف فيصباح كل شعر حسنا وقبيحا في آن واحد .

وقد خالف ذلك بعض النقاد منهم قدامة بن جعفر قال :
وليست خاتمة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه
كما لا يعيب جودة النجارة عيب في الخشب مثلا كرداءته في ذاته
ومما اتجه إليه النقاد مراعاة مواقف الشاعر وذوقه فيها
وموافقة كلامه للمقتضى والمناسبات . وكان للعرب بذلك
اهتمام . ولهم فيه بديهة وذوق . ويروى عن عبد الملك بن مروان
أنه دخل عليه جرير ، بنشدة قصيدته التي يقول في مطلبها :

أتصبحو أم فؤادك غير صالح

فقال عبد الملك بل فؤادك يا ابن الفاعلة

وعابوا على المتنبي قوله لكافور أول لقائه :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

في مطلع قصيدته المعروفة ، وإن كان الخطاب موجها

لنفسه لا إلى كافور ومما يؤخذون به أبا نواس ، ويؤنبونه عليه أن
بعض بني برمك بنى داراً استفرغ فيها مجهوده وانتقل إليها فصنع
أبو نواس في ذلك الحين قصيدة يمدحه فيها ويقول في أولها :
أربع البلي إن الخشوع لباد عليك وإني لم أخذك ودادي
وختمها بقوله :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بنى برمك من رأمحين وغاد
فتطير منها البرمكى . واشمأز حتى كلع وظهرت الوجهة
عليه . ثم قال نعت إلينا أنفسنا يا أبا نواس . والكلام في ذلك
كثير والشواهد عديدة

ولم يخل بعض النقاد من التعنت في نقد الشعر ومهاجمة
الشعراء كما أرادوا . ولهم في الاحتيال على ذلك فنون . ويقع
ذلك عادة مع المولدين . أما المتقدمون فقد كانوا يمتثلون لهم
عادة لكل ما يقع منهم ومن أبعد الوسائل . ويرجع ذلك إلى
تعظيمهم وتنزيههم عن كل نقص ، ووضعهم مكان المثل الأعلى
من نظرهم . خلافاً للمولدين الذين لا يريدون أن يعترفوا لهم
بأحسان . ومن ظريف ما يروى عن اسحق بن ابراهيم الموصلي
انه قال أنشدت الأصمعى :

هل إلى نظرة إليك سبيل فيبيل الصدا ويشفى الغليل
 إن ما قل منك يكثر عندي وكثير ممن تحب القليل
 فقال والله هذا الديباج الخسرواني ... وانه لمن تنشدني ؟
 فقلت إنهما ليلتهما فقال لاجرم والله أن أثر التكلف فيهما ظاهر
 وللشعر بعد عيوب ومحاسن جمعها المولدون ورتبوها بنظام
 معجب في ذاته بالغ غاية الدقة في موضوعه من حيث نظرتهم
 للشعر . ومن عيوبه غير ما قدمنا عيوب يختص بعضها بالوزن
 والقافية . قال يونس وهي أربعة : الزحاف والايطاء والاكفاء
 والأقواء ثم عيوب أخرى تختص بالشعر جاء قدامه على بعضها
 في كتابه نقد الشعر منها ما قوامه الأسلوب . كالخشو والتذنيب
 والتعقيب والتعطيل ومنها ما يخص المعاني وهي فساد المقابلات
 والاستحالة والتناقض وفساد التفسير .

أما السرقة فقد كانت من أكبر ما يرمى به الشعر عندهم
 اللهم إلا إذا كان الشاعر يتناول المعنى لغيره فيمذبه ويزيد عليه
 أو يضعفه في قالب أرقى وأبلغ . فأن ذلك مغتفر له . لا بل
 يصير اليه المعنى دون صاحبه

وقد اختلفوا في سرقة النثر فبعضهم يقول أنها سرقة

والبعض يقول بخلاف ذلك والغالبية يعدون ماورد في شعر
المتنبى وأبي العتاهية من حكم اليونان سرقة عيبوها عليهما .
أما ابن رشيق في هذا فيؤيد المذهب الثاني ولا يرى شيئا في
ذلك وله رسالة في سرقة الشعر بين فيها ذلك في مكانه منها

هذه عيوب الشعر عند العرب أجمالها ليكون لدى
القارئ فكرة عن النقد من كل ناحية . أما محاسن الشعر
عندهم فعكس ما ذكرناه وقد حصر قدامه ما يتعلق منها
بالمعاني في سبعة أشياء قال وهذه الأشياء إذا اجتمعت في الشعر
كان في غاية الجودة وهي كما ذكرها : صحة المقابلة ، صحة التقسيم
صحة التفسير والتتميم ، المبالغة ، التكافؤ ، الالتفات . فأنت ترى
أنها جميعا لاعلاقة لها بالمعاني المعروفة الآن إلا من حيث الصناعة
وإذا كانت هذه نشأة النقد عند العرب فأنت لا نعدو الحقيقة
إذا قلنا إن شاعرنا كانا يتقدمان النقد ، ويسبقانه أشواطاً
بعيدة . ويتبين ذلك من كلامنا في رأى المتقدمين في شعر
البحترى وأبي تمام ، في الفصل التالى .

رأى المتقدمين

فى شعر البحترى وأبى تمام

بينما فيما تقدم نشأة النقد عند العرب وطبيعة الناقدين عندهم .
ويظهر مما أسلفنا أن طبيعة التأثر السريع كانت الأساس الأول
للقيد ومن ثم اتجه الإعجاب الى اللفظ الفصيح والصناعة الحسنة
والمبالغة فى التشبيهات وتبا ذوقهم عن شعر الروية . والناقد
العربى يصد عما لا يفهمه لأول وهلة أو يحتاج فى تفهمه الى شيء
من التبصر . وقل أن ينظر إلى قصيدة تتعدى الفكرة فيها
البيتين أو الثلاثة . وقد بينا السبب فى ذلك وعزوانه الى الطبيعة
العربية فى نشأتها الأولى .

وليس معنى هذا أن العرب كانوا لا يفهمون الشعر . فهذا
ما لا نقصده ولا نرمى اليه ، ولكنهم كانوا يفهمونه على طريقتهم
التي تتفق وطبيعتهم من ناحية وتلائم حياتهم من ناحية أخرى .
وقد كان البحترى وأبو تمام مادة واسعة لنقاد الشعر ، وصيارفة

الكلام أجيالا متعاقبة . فظهر هذين الشاعرين في عصر واحد ،
واتصال أحدهما بالآخر وأخذ عنه ثم بروزه وتفوقه وارتفاع
نجمه . جعل الكلام عن الشاعرين حديث كل متحدث عن
الشعر والشعراء وقد وصف ابن الأثير أبا تمام والبحترى قال :

أما أبو تمام : فانه رب معان وصيقل أذهان ، وقد شهد له
بكل معنى مبتكر . لم يمش فيه على أثر . ولقد مارست من
الشعر كل أول وأخير . ولم أقل ما أقوله إلا بعد التنقير . فمن
حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه ، وراض فكره برائضه ،
أطاعته أعنة الكلام . وكان قوله في البلاغة ما قالت حذام .
فخذ مني في ذلك قولة حكيم . وتعلم فان فوق كل ذي علم عليم .
وأما البحترى : فانه أحسن في سبك اللفظ على المعنى ،
ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الاطلاق ، فبينما يكون في
مشظف نجد ، إذ يتشبهت بريف العراق . وسئل المتنبى عنه وعن
أب تمام وعن نفسه فقال : أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى .
ولعمري إنه أنصف في حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة
علمه ، فان البحترى أتى في شعره بالمعنى المقدود من الصخرة
الصماء ، في اللفظ المصوغ من سلافة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام ،

مع قربه إلى الافهام . وما أقول إلا أنه أتى في معانيه بالنوادر
الغالية ، ورق في ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية .

وهذا كلام مجمل بسيط يوضح بعض المعالم البدائية في تفهم
الشاعرين . ولا يكفي لفهم أبي تمام أنه رب معان وصيقل أذهان .
ولا يفهم البحترى بأنه أتى في شعره بالمعنى المقدود من الصخرة
الصماء . في اللفظ المصوغ من سلافة الماء . وقد أغرب في تصوير
المعاني هذا التصوير الجاف . وإن كنت لأجد في شعر أبي عبادة
معنى يصح أن يقال فيه هذا الوصف . ولعله يقصد أن يقول
ما قاله البحترى في محمد بن عبد الملك الزيات وعبر عنه أحسن
تعبير حين قال .

ومعان لو فصلتها القوافي هجنت شعر جرول وليد
حزن مستعمل الكلام اختيارا وتجنبن ظلمة التعقيد
وركن اللفظ القريب فأدر كمن به غاية المراد البعيد
واختصر أبو العلاء المعرى ديوان أبي تمام وشرحه وسماه ،
ذكرى حبيب ، وديوان البحترى وسماه ، عبث الوليد ، وديوان
المتنبي وسماه معجز أحمد وتسلكم على غريب أشعارهم ومعانيها
وما أخذهم من غيرهم . وما أخذ عليهم ، وتولى الانتصار لهم

والنقد في بعض المواضع عليهم . والتوجيه في بعض الأماكن
بخطهم ، وليس بين أيدينا من هذه الكتب الثلاثة غير كتاب
واحد هو كتاب عبث الوليد وقد اختلفوا في تسمية الكتاب
بهذا الاسم فقال البعض إنه يرمى إلى قول البحري .

إن الهموم طويني ونشرني عبث الوليد بمجائب القرطاس
وبعضهم قال إن المعري قد اشتهر في شعره بمعاينة البحري
ومن ذلك قوله في سقط الزند :

ذم الوليد ولم أذمم جواركم فقال ما أنصفت بغداد حوشيتا
فإن لقيت وليدا والنوى قذف يوم القيامة لم أعدمه تبكيتا
مشيراً إلى قول البحري :

ما أنصفت بغداد حين نوحشت بنزيلها وهي المحل الآنس
ومنه قوله :

وقال الوليد النبع ليس بمثمر وأخطأ سرب الوحش من ثمر النبع
مشيراً إلى قول البحري :

وعيرتني سجال العدم جاهلة والنبع عريان ما في عوده ثمر
وليس في هذا الكتاب شيء من جيد البحري حتى أن
المؤلف قد اختار بيتين اثنين من سيميته في وصف إيوان كسري

مما يدل على أن المعري قد اقتصر ، في كتابه على غريب البحري
وسماه « عبث الوليد »

ومما جاء في هذا الكتاب : في القصيدة التي أولها :

زعم الغراب منبيء الأنبياء

وفيها يقول « أي البحري » :

فلعلني ألقى الردي نير يحنى عما قليل من جوى البرحاء

قال المعري في كلامهم لعلني وبها جاء القرآن . وربما جاء

لعلني وهذا البيت ينشد على وجهين :

ذريني جواداً مات هزلاً لعلني أرى ما ترين أو بخيلاً مخلداً

ومنهم من ينشد : لأنني وهو بمعنى لعلني

وأطال في تلك الرسوم بكائي

قال المعري كانت الكاف في تلك مفتوحة وقد حكت وكسرت

والكسر غلط في هذا الموضع . لأنها إنما تكسر إذا كان الخطاب

لمؤنث . وقد دل ما بعد هذا البيت وقبلة على أنه يخاطب مذكراً

وقد ادعى بعضهم أن كاف (ذلك) تعرب في الضرورات وينشد

وانما الهالك والتالك مدفع ضاقت به المسالك

كيف يكون النوك إلا ذلك

وهذا لا يقبل ممن حكاه إذا كان تسكين القافية لا مؤنة فيه ولا اضطرار ، ولو صح أن كاف ذلك ترفع لجاز أن تخفض كاف تلك في بيت أبي عبادة .

وقال : في البيت الآتي من سينية البحتری :

مغلق بابه على جبل القبق الى دارتي خلط ومكس
القبق موضع معروف : وهى كلمة معربة بالآلف واللام .
ونظيرها في كلام العرب قليل إذ كانوا يستثقلون أن تكون
الفاء واللام من جنس واحد والعين من جنس آخر والأوسط
ساكن ويستخفون أن تكون العين واللام متجانسين فيكثر في
كلامهم مثل مد وصد ، ويقل نحو دعد وقبق . فكان بعض
الناس يقول الفيق في هذا البيت وهو تصحيف . ويدكرون أن
القبق مراد به جبل قاف وليس معنى البيت على ذلك . وانما خلط
ومكس قريتان من جبل القبق فلذلك جمع بينهما .

هذا نوع من تعليق المعرى وتحقيقه في شعر البحتری وهو
أقرب الى شرح المتون الفقهية ، منه الى بيان النواحي الشعرية .
وعرض لنقد أبى تمام أبو الحسن على بن عبد العزيز الشهير

بالقاضي الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٦ هـ في كتاب الوساطة بين
المتنبي وخصومه .

وقد بدأ هذا الكتاب بمقدمة في ذكر أغلاط الجاهليين
معتدراً بها عن أغلاط المتنبي . نروى منها قول امرئ القيس :
يا راكباً بلغ إخواننا من كان من كندة أو وائل
فنصب بلغ وقوله :

فاليوم أشرب غير مستحقب إنما من الله ولا وائل
فسكن اشرب وقوله :

لها متنتان خطاتا كما أكب على ساعديه النمر
فاسقط النون من خطاتا لغير إضافة ظاهرة .

وقول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها
فسكن يرتبط وقول طرفة « قد رفع الفخ فاذا تحذرى »
خذف النون . وقول الأسدي :

كنا نرفعها وقد مزقت واتسع الخرق على الراقع

فسكن ترفعها وقول امرئ القيس :

كأن ثبيراً من عرانيں وبله كبير أناس في مجاد مزمل

نخفّض مزمل وهو وصف كبير

ومما ذكره من أغاليطهم في المعاني قول امرئ القيس
وأركب في الروع خيفانة كسا وجهها شعر منتشر

قال وهذا عيب في الخيل . وقول زهير :

يخرجن من شربات ماؤها ضحل

على الجذوع يخفن الغم والفرقا

قال والضفادع لا تخاف شيئا وقول الآخر :

بريّة لم تأكل المرققا ولم تذق من البقول الفستقا

فجعل الفستق بقالا

وعرج على شعر أبى تمام فذكر المتكلف فيه والمعقد
والتفاوت ونعى عليه فساد المعنى في بعض الأشعار ومن قوله في
ذلك « وقصد الأغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غث ثقیل .
وأرصد لها الأفكار بكل سبيل . فصار هذا الجنس من شعره
إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب ، إلا بعد إتعاب الفكر وكد
الخطر . والحمل على القريحة . فاذا ظفر به فن بعد العناء والمشقة .
وحين حسره الأعياء وأوهن قوته الكلال . وتلك حالة لا تهش
فيها النفس للاستماع لحسن ، والالتذاذ بمستظرف . وهذه جريرة

التكلف واست أقول هذا غضاً من أبي تمام ولا تهجيناً لشعره،
ولا عصبية عليه لغيره . فكيف وأنا أدين بتفضيله وتقديمه
وأنتحل موالاته وتعظيمه ، وأراه قبلة أصحاب المعاني وقدوة
أهل البديع ، ومن الأبيات المتكلفة التي أخذها على أبي تمام قوله
جهمية الأوصاف إلا أنها قد لقبوها جوهر الأشياء

والبيت من قصيدته التي يمدح فيها يحيى بن ثابت . وقد ورد
في أبيات يصف فيها الخمر قال

وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت كذلك قدرة الضعفاء
جهمية الأوصاف إلا أنهم قد لقبوها جوهر الأشياء
وكان بهجتها وبهجة كأسها نار ونور قيـدا بواء
أودرة بيضاء بكرأ طبقت حملا على ياقوتة حمراء
يخفي الزجاج لونها فكأنها في الكف قائمة بغير إناء

والأبيات من أبدع الشعر في وصف الخمر ، وليس من
الصواب في النقد أن يذكر هذا البيت على انفراد وتهمل
الأبيات الأخرى وهي كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا
وأخذ عليه قوله :

ألم يقنعك فيه الهجر حتى بكلمت لقلبه هجرا بين

قال فهل رأيت أغت من بكلمت في بيت نسيب
وبكلمت هنا بمعنى خلطت ، وهي ليست من الكلمات
الغثة إذا وضع معناها وكانت من الألفاظ المعروفة . وإن كنا
نستحسن أن تحمل محلها مزجت لتكون الأبيات في مستوى
واحد من البساطة .

وأخذ عليه قوله :

أطلت منك أجياد الأطباء	أطلال الرسوم لطلال ما قد
فضحوة وجهها نشر الضحاء	بها شغلت دبايخ البهاء
بذكر البين عرتين الصفاء	لنا أيام لم تدم الليالي
نواه بالبكى من البكاء	فأضحى البين لا يرضى لطرفي
فأثكله جـلايب العزاء	لقد طلع الفراق على ابن صبرى

ومما ذكره في معرض السخيف من شعره قوله :

شاهدى الدمع أن ذاك كذاك	نم وإن لم أنم كراى كراك
أنا حتى تكون نفسى فداك	طلال ضرى نفسى فداؤاك بل من
صناق صدرى بل كيف استطيع أن أص	

بر إذ كان ناظرى لا يراك
ذهبت مقلتاى بالدم والدمع إلى النار إذ نجت مقلتاك

وقد قرأنا هذه الأبيات في ديوان أبي تمام على خلاف
مارواه الجرجاني وهي نقلا عن ديوانه في باب الغزل :

نم فأن لم أنم كراى كراك شاهدى منك أن ذاك كذاك
طال صبرى تفديك نفسى وقلت نفسى مثلى عن أن تكون فداك
فى سبيل الهوى فؤادى وما آه فى عليه ، لكن على ذكراك
ذهبت مقلتماى بالدم والدمع فى النار إذ نجت مقلتماك
لست أبكى ذهاب عيني لعيني غير أنى أبكى لأن لا أراك

ولا يخفى الفرق بين الروایتين . والأبيات بدیعة فى بابها .
ونقد كلمة الأيم فى قوله :

حلت محل البكر من معطى وقد زفت من المعطى زفاف الأيم
وشاركه فى ذلك الأمدى فى كتاب الموازنة . قال الجرجاني
جعل الأيم مقابلا للبكر فى التقسيم والأيم قد تكون
بكرا وانما هى التى لازوج لها . يقال أمت المرأة ثم وكذلك
الرجل إذا مانت امرأته . وانما لأهل اللغة قولان أحدهما أن
المرأة قد تكون أيما إذا لم يكن لها زوج وان لم تكن نكحت
قط . والثانى أنها لا تكون أيما إلا وقد نكحت ثم حلت بموت
أو طلاق بكرا كانت أو غير بكر بنى عليها الزوج أو لم يمين .

فيتبين أن أبا تمام قد قابل بين البكر والأيم . وظاهر الخطاب يقتضى التغاير . وقد رد الجرجاني على من جمع بين أبي تمام والشافعى . فى النقد وقد ذهب الشافعى فى قول النبى صلى الله عليه وسلم . الأيم أحق بنفسها من وليها والبكر تستأذن فى نفسها إلى أن المراد بالأيم الثيب .

ونرى أن الأيم فى بيت أبي تمام قد حدد معناها بوضعها مقابلة للبكر فى الشطر الأول . وإذا كانت شيئا آخر غير البكر أو أنها لا تحمل معنى البكر على إطلاقه فالمقابلة جائزه ومقبولة من الشاعر الى حد ما .

وإذا كان الجرجاني يقول فى صدد الدفاع عن المتنبي :
وليس من شرائط النصفة ، أن تنعى على أبي الطيب بيتا شذ ، وكلمة ندرت ، وقصيدة لم يسعده فيها طبعه ، ولفظة قصرت عنها عنايته ، وتنسى محاسنه ، وقد ملأت الاسماع ، وروائعه وقد بهرت ... الخ ، فأنا حريون أن نقول نفس هذا الكلام فى أبي تمام .

ولعل خير من عرض للكتابة فى هذا الباب هو أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الأمدى فى كتابه الموازنة بين أبي تمام

والبحتري . ويتخرج الأمدى فى المفاضلة بين الشاعرين . وهو
 موضوع كتابه وإن كان يصل بهذا التخرج إلى رأى سديد
 ويضع أسسا جديدة لم يسبقه إليها أحد فيقول : إن كنت أدام
 الله سلامتكم ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ويؤثر صحة السبك
 وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء والرونق فالبحتري أشعر
 عندك ضرورة . وإن كنت تميل إلى الصنعة والمعانى الغامضة ،
 التى تستخرج بالغوص والفكرة ولا تلوى على غير ذلك . فأبو تمام
 عندك أشعر لا محالة . فأما أنا فليست أنصح بتفضيل أحدهما
 على الآخر . ولكنى أقارن بين قصيدتين من شعرهما إذا فى الوزن
 والقافية وإعراب القافية وبين معنى ومعنى فأقول أيهما أشعر
 فى تلك القصيدة وفى ذلك المعنى . ثم احكم أنت حينئذ على
 جملة ما لكل واحد منهما إذا أخذت علما بالجميل والردى .

والذى نلاحظه على هذا القول أنه لا يقبل على إطلاقه ،
 إذ أن الصنعة والمعانى الغامضة التى تستخرج بالغوص والتفكير ،
 ليست كل شعر أبى تمام وإلا فأتى غموض فى قوله :

لهف قلبى على لابل عليك أن تجول العيون فى خديكا
 وعزيز على أن تجتنى الأبط سار زهر الربيع من وجنتيك

أنت وقف على القلوب بما أضحت ميت تهدي وهن وقف عليك
 لا قضي الله لي وصالك أن كنه مت أراني أشتاق الا اليك
 جرحتك العيون باللاحظ حتى صرت أخشى عليك من عينيكا
 وهى أبيات تسيل رقة وحسنا بل وأى غموض فيما أوردنا
 له من الشعر فيما تقدم من هذا الكتاب . وأى غموض فى أبياته
 الرائية فى وصف الربيع وأى غموض فى وصف القلم فى قصيدته
 التى مدح بها محمد بن عبد الملك الزيات . على أننا لا ننفى أن أثر
 الصناعة والتكلف ظاهر فى أبيات متفرقة فى ديوانه . والقول
 فيها هو ما قاله القاضى الجرجاني فى سقطات المتنبي كما بينا آنفا
 . ويستطرد الامدى مما تقدم إلى حوار بديع يبين فيه احتجاج
 كل فريق من أصحاب الشعاعين على الفريق الآخر وما ينعاه
 بعض على بعض ونحن نذكر طرفا من هذا الحوار لطرافته من
 ناحية وجميعه خلاصة بليغة — لا غنى عن ذكرها هنا —
 لاحتجاج الفريقين :

قال صاحب أبي تمام : كيف يجوز لقائل أن يقول إن البحترى
 أشعر وعن أبي تمام أخذ ، وعلى حسنه احتذى ، ومن معانيه
 استقى . وباراه حتى قيل الطائي الأكبر والطائي الأصغر واعترف

البحترى بأن جيد أبى تمام خير من جيده . على كثرة جيد أبى تمام فهو بهذه الخصال أن يكون أشعر من البحتري أولى من أن يكون البحتري أشعر منه .

قال صاحب البحتري : أما الصحبة فما صحبه ولا تلهذ له ولا روى ذلك أحد عنه ، ولا أرى قط أنه محتاج إليه ، ودليل هذا الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند أبى سعيد محمد ابن يوسف النخعى . وقد دخل اليه البحتري بقصيدته التى أولها : « أفاق صب من هوى فأفيقا » . وأبو تمام حاضر . فلما أنشدها علق أبو تمام أبيانا كثيرة منها فلما فرغ من الانشاد أقبل أبو تمام على محمد بن يوسف فقال أيها الأمير ما ظننت أن أحدا يقدم على أن يسرق شعري ، وينشده بحضرتي حتى اليوم ثم اندفع ينشد ما حفظه حتى أتى على أبيات كثيرة ^(١) من القصيدة فبهت البحتري ورأى أبو تمام الانكار فى وجه أبى سعيد محمد بن يوسف فحينئذ قال له أيها الأمير والله ما الشعر إلا له . وإنه أحسن فيه الاحسان كله . وأقبل يقرظه ويصف معانيه ويدكر محاسنه ثم جعل يفخر باليمن . وانهم ينبوع الشعر . ولم يقنع من محمد

(١) روينا خبر ذلك مفصلا فى الفصل الأول .

ابن يوسف حتى أضعف له الجائزة . فهذا الخبر الشنيع يبطل ما ادعيتم ؛ فمن كان يقول مثل هذه القصيدة التي هي من عين شعره وفاخر كلامه قبل أن يعرف أبا تمام ؛ إلا أن يكون بالخبر ، يستغنى عن أن يصحبه ، أو يتلمذ له أو لغيره في الشعر . إلا أنه مع هذا لا ينكر أن يكون قد استعار بعض معاني أبي تمام لقرب البلدين ، وكثرة ما كان يطرق سمع البحتری من شعر أبي تمام . فيعلق شيئاً من معانيه ، معتمداً للاخذ أو غير معتمد . وليس ذلك بمانع من أن يكون البحتری أشعر منه . فهذا كثير قد أخذ من جميل وتلمذ له واستقى من معانيه فما رأينا أن أحداً أطلق على كثير أن جميلاً أشعر منه . بل هو عند أهل العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل . . . فقد علمتم الآن أن هذه حالة لا توجب لكم تفضيل أبي تمام على البحتری من أجل أنه أخذ منه شيئاً . وأن البحتری يعلو بتوسط ولا يسقط . ومن لا يسقط ولا يفسف أفضل في الشعر . وقد اجتمعنا نحن وأنتم على أن أبا تمام يعلو علواً حسناً وينحط انحطاطاً قبيحاً وشعر البحتری شديد الاستواء والمستوى الشعر أولى بالتقدمة من المختلف صحيحاً فهو البحتری لا عليه .

وأما قول البحتري جيده خير من جيدى وردينى خير من
رديه ، فهذا خبر ان كان ممن يسقط ويسفسف ، والذي نرويه عن
أبى على محمد بن العلاء السجستاني وكان صدوق البحتري أنه قال :
سئل البحتري عن نفسه وعن أبى تمام فقال هو يغوص على
المهاني . وأنا أقوم بعمود الشعر . وهذا الخبر هو الذي يعرفه
الشاميون . وسمعت أبا على محمد بن العلاء أيضا يقول كان البحتري
عند نفسه أشعر من أبى تمام

قال صاحب أبى تمام : فأبو تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار
فيه أولا وإماما متبوعا وشهرا به حتى قيل هذا مذهب أبى تمام
وطريقة أبى تمام . وسلك الناس نهجه وافتقروا أثره وهذه فضيلة
عزى عن مثلها البحتري :

قال صاحب البحتري : ليس الامر لاختراعه لهذا المذهب
على ما وصفته ولا هو بأول فيه ولا سابق اليه ، بل سلك في ذلك
سبيل مسلم . واحتذى حذوه ، وأفرط وأسرف ، وزال عن النهج
المعروف ، والسنن المألوف وعلى أن مساما أيضا غير مبتدع لهذا
المذهب ولا هو أول فيه . ولكن رأى هذه الأنواع التي وقع
عليها اسم البديع وهي الاستعارة والطباق والتجنيس منشورة

متفرقة في أشعار المتقدمين . فقصدها وأكثر في شعره منها
وهي في كتاب الله عز وجل موجودة قال الله تعالى « واشتعل
الرأس شيبا » وقال تبارك وتعالى « وآية لهم الليل نسلخ منه
النهار » وقال « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » فهذه من
الاستعارة التي في القرآن وقال امرؤ القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل
جعل الليل يتمطى وجعل له أردافاً وكلـكـلا . وقال زهير :

صحا القلب عن ليلي وأقصر باطله

وعرى أفراس الصبا ورواحله

فجعل للصبا أفراساً ورواحل وقال لييد :

وغداة ربح قد كشفت وقرة إذ أصبحت بين الشمال زمامها
فجعل للغداة يدا وللشمال زماما . . . فقد سقط الآن احتجاجكم
باختراع أبي تمام لهذا المذهب ، وسبقه إليه ، وصار استكثاره
منه وإفراطه فيه من أعظم ذنوبه ، وأكبر عيوبه . وحصل
للبحرئى أنه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعهودة . مع ما تجده
كثيراً في شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة ، وانفرد
بحسن العبارة وحلاوة الألفاظ ، وصحة المعاني . حيث وقع

الاجماع على استحسان شعره واستجادته. وروى شعره واستجاده
سائر الرواة على طبقاتهم واختلاف مذاهبهم فمن نفق على الناس
جميعاً أولى بالفضيلة وأحق بالتقدم .

قال صاحب أبي تمام إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم
يفهمه لدقة معانيه ، وقصور فهمه عنه . وفهمه العلماء والنقاد في
علم الشعر . وإذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضره طعن من
طعن بعدها عليه .

قال صاحب البحري : إن ابن الأعرابي وأحمد بن يحيى
الشيباني وقبلهما دعبيل بن الخزاعي قد كانوا علماء بالشعر ، وكلام
العرب وقد علمتم مذاهبهم في أبي تمام وأزدراءم بشعره ، وطعن
دعبيل عليه . وقولهم إن ثلث شعره محال وثلثه مسروق وثلثه
صالح وروى عن دعبيل أنه قال ما جعله الله من الشعراء بل شعره
بالخطب والكلام المنثور أشبه منه بالشعر . ولم يدخله في كتابه
المؤلف في الشعراء ، وقال ابن الأعرابي في شعر أبي تمام إن كان
هذا شعراً فكلام العرب باطل .

قال صاحب أبي تمام : فقد بطل احتجاجكم بالعلماء
وتفضيلكم لشعره عليه لأن دعبلاً كان يشنأ أبا تمام ومحسده ،

وذلك مشهور معلوم منه فلا يقبل قول شاعر في شاعر . وأما ابن
الاعرابي فكان شديد التعصب عليه ، لغرابية مذهبه ، ولأنه كان
يرد عليه من معانيه ما لا يفهمه ولا يعاينه . فكان إذا سئل عن شيء
منها يأنف أن يقول لا أدري . فيعدل الى الطعن عليه والدليل
على ذلك . أنه أنشد يوماً أبياتاً من شعره وهو لا يعلم قائلها
فاستحسنها وأمر بكتابتها فلما عرف أنه قائلها قال خرقوه . وكان
ابن الاعرابي على علمه وتقدمه قد حمل نفسه هذا الظلم القبيح
والتعصب الظاهر فما تنكرون أيضاً أن تكون حال سائر من
ذكرتموه مثل حاله .

قال صاحب البحتری : لا عيب على ابن الاعرابي في طعنه
على شاعر عدل في شعره عن مذاهب العرب في الاستعارات
البعيدة المخرجه للكلام الى الخطأ والاحالة والعيب في ذلك يلحق
أباً تمام إذ عدل عن المحجة الى طريقة يجهلها ابن الاعرابي .
وأمثاله من المضطلعين بالسليقة العربية

صاحب أبي تمام : فقد علمتم وسمعت الرواة وكثيراً من
العلماء بالشعر يقولون : جيد أبي تمام لا يتعلق به جيد أمثاله ،
وإذا كان جيده بهذه المكانة . وكان من الممكن إغفال رديئه .

واطراحه كأنه لم يقله . فلا يبقى ريب أنه أشعر شعراء عصره
والبحترى واحد منهم .

صاحب البحترى : انما صار جيد أبى تمام موصوفا ، لأنه
يأتى فى تضاعيف الردىء الساقط فيجىء رائقا لشدة مباينته ما يليه
صاحب أبى تمام : فتنكرون كثرة ما أخذه البحترى من
أبى تمام وإغراقه فى الاستعارة من معانيه ، فأيهما أولى بالتقدمه
المستعير أو المستعار منه .

صاحب البحترى : أما ادعائكم كثرة الأخذ منه . فقد قلنا
إنه غير منكر أن يكون أخذ منه من كثرة ما كان يرد على
سمع البحترى من شعر أبى تمام ، ولكن ليس كما ادعيتم وادعاه .
أبو الضياء بشر بن تميم لأنه ذكر ما يشترك الناس فيه وتجربى
طبائع الشعراء عليه فجعله مسروقا

وإذا كان هذا الحوار لم يبين لنا شيئا عن شخصية كل
من الشاعرين وأغراض الشعر عند كل منهما . فإنه يقرب إلى
الذهن صورة من صور الاختلاف الذى نشب بين النقاد فى
المقارنة بينهما فأتهما وان تشابها فى بعض المعانى الجزئية ،

يختلفان في الغرض والمزاج ويبتعدان في المذهب الشعري كل الابتعاد .

ويخرج الآمدى بعد هذا الحوار إلى ذكر مساوىء الشعارين ثم إلى ذكر محاسنهما ويختتم كتابه بالموازنة بينهما .

أما المساوىء فمنها ما يتعلق بالسرقات . ومنها ما يتعلق بالمعاني . ومنها ما ينصرف إلى الوزن ومنها ما ينصرف إلى اللفظ والسرقة من أهم أبواب النقد عند العرب . وقد ألف فيها ابن رشيق صاحب العمدة كتابه الذى أشرنا إليه فى الفصل السابق وتبين منه أنواعها وأقسامها ، وما يعد منها فى باب السرقة وما لا يعد فى ذلك . ويذكر الآمدى من السرقات ما وجدته فى كتب الناس ثم ما وجدته بنفسه ويقول فى معرض الكلام عن أبى تمام أن الذى خفى من سرقاته أكثر مما قام ويبدأ هذه السرقات بقول الكميت :

ولا تكثروا فيها اللجاج فإنه محال سيف ما قال ابن دارة أجمعاً
قال أخذه الطائي فقال «السيف أصدق أنباء من الكتب»
ونسبة السرقة إلى أبى تمام فى هذا المعنى حيف فى النقد ، وضعف فى التبصر . إذ أن أبى تمام ، إنما بدأ قصيدته فى فتح عمورية بهذا

القول . لأنه القول المناسب لمقتضى الحال . ولا حاجة به إلى النظر الى بيت الكميت على الإطلاق . وذلك أن المنجمين كانوا قد أذاعوا بأن المعتصم لا يفتح عمورية . وراسله الروم : إنا نجد في كتبنا أن مدينتنا هذه لا تفتح إلا في وقت إدراك التين والعنب وبيننا وبين ذلك الوقت شهر . يمنعك من المقام فيها البرد والثلج . فأبى أن ينصرف وأكب عليها حتى فتحها وأبطل ما قالوه فنطق الحادث قد ظهر على لسان أبي تمام . ولا يعد هذا من السرقة في شيء . ولا أدري لماذا أغفل الآمدى الشطر الثاني وهو قوله ، في حده الحد بين اللهو واللعب ، والشطر الثاني متمم الأول . والبيت هو الوحدة في الشعر العربي لا الشطر . والشاعر في الشطر الثاني يزيد في المعنى ويوسعه ويبرزه . وقد استطرد أبو تمام من هذا البيت إلى أبيات أخرى كلها متصل به مفسر له متمم لما جاء فيه . فذكر أقوال المنجمين وكتب الروم . وكذب ما جاء فيها ووصف انتصار المعتصم . فالفكرة متسلسلة من البيت الأول متصلة بما يليه من الأبيات . وكلها معان وصور لا توجد في بيت الكميت ، ولاتلقى ظلا من الشبهة على بيت أبي تمام .

قال الآمدى . وقال مسلم بن الوليد فى صفة الخمر :
قتلت وعاجلها المدير ولم يتد فأذا به قد صـيرته قتيلا
أخذه الطائى فأحسن الأخذ فقال :

إذا اليد نالتها بوتر توترت على صنفنها ثم استقادت من الرجل
وإن كان قد أخذها من ديك الجن فلا إحسان له ، لأنه
أتى بالمعنى بعينه قال ديك الجن :

تظل بأيدينا تققع روحها وتأخذ من أقدامنا الراح ثارها
ولا شك أن المعنى فى بيت أبى تمام هو نفس المعنى فى بيت
ديك الجن ، وإن كان فى رأي أنه يختلف عن قول مسلم بن الوليد
ولكن الآمدى يتخرج هنا فى الاتهام . فيقول . وليس
ينبغى أن يقطع على أيهما أخذ من صاحبه لأنهما كانا فى عصر
واحد يقصد ديك الجن وأبا تمام .

قال الآمدى ، وقال الأعشى :

وأرى الغوانى لا يواصلن امرءا فقد الشباب وقد يصلن الأمردا
أخذ الطائى المعنى والصفة فقال :

أحلى الرجال من النساء موقعا من كان أشبههم بهن خدودا
وزهد النساء فيمن فقد الشباب معنى مكرور ، ولا يحتاج

النظر فيه إلى سرقة . قال امرؤ القيس :

أراهنّ لا يحببن من قل ماله ولا من رأين الشيب فيه وقوما

ولعل الآمدى قصد إلى السرقة في قول الأعشى : وقد يصلن
الأمردا وقول أبي تمام . من كان أشبههم بهن خدودا . وإذا
عرفنا أن قد في بيت الأعشى للتقليل تبين لنا أن المعنى جد
مختلف في البيتين . وفي رأينا أن البيت الأول أصح . والمرأة
لا تصبو إلى من كان يشبهها من الرجال .

وباب السرقات كبير يستوعب أكثر من نصف الكتاب
ومن هذه السرقات ما يعزي إلى البحري ولست أرى الأمر فيها
يستدعى زيادة في الأيضاح عما ذكرناه . وقد ذكرنا القليل
الذي يدل على الكثير وإن كنا لا نستبعد أن يقع في شعر البحري
وأبي تمام كلام مسبوق لكثرة روايتهما من أشعار المتقدمين ،
وتوارد الخواطر . وما من بيت اتهم بسرقة إلا ولهما خير منه
وقد أورد الآمدى أبياتا رواها دعبل الخزاعي . وادعى أن
أبا تمام سرقة في قصيدته المشهورة في رثاء ابن حميد الطوسي
التي يقول في مطلعها :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر

وليس لعين لم يغض ماؤها عذر

ودعبل مطعون في روايته هذه لما بينه وبين أبي تمام
من الكراهية .

قال رجل للحسن بن وهب إن أبا تمام سرق من رجل
يقال له مكنف من ولد زهير بن أبي سلمي وهو رجل من الجزيرة
قصيدته التي يقول فيها :

كأن بني نبهان يوم وفاته

نجوم سماء خر من بينها البدر

توفيت الآمال بعد محمد

وأصبح في شغل عن السفر السفر

فقال الحسن بن وهب هذا دعبل حكاه وأشاعه في الناس .
وقد كذب . وشعر مكنف عندي ثم أمر باخراجه . فأخرجت
هذه القصيدة فلم يجد فيها الرجل شيئا مما قال أبو تمام في قصيدته
ثم دخل رجل على الحسن بن وهب . فقال يا أبا علي بلغني أنك
قلت في أبي تمام كيت وكيت . فهبه سرق هذه القصيدة كلها
وقبلنا قولك . أسرق شعره كله ؟ . فأنخذل دعبل واستحيا . فقال له

الحسن بن وهب إن الندم توبة . وهذا الرجل قد توفى ولعلك
كنت تعاديه في الدنيا — احسدا على حظه منها وقد مات الآن
وحسبك من شعره .

أما الأبيات التي أوردتها الآمدى فهي :

أبعد أبي العباس يستعقب الدهر

وما بعده للدهر عتي ولا عذر

ألا أيها الناعي ذفافة ذا الندى

تعست وشلت من أناملك العشر

ولا مطرت أرضا سماء ولا جرت

نجوم ولا لذت لشاربها الخمر

كأن بنى القمعاق بعد وفاته

نجوم سماء خر من بينها البدر

توفيت الآمال بعد ذفافة

فأصبح في شغل عن السفر السفر

يعزون عن ثاو تعزى به الملا

ويبكي عليه البأس والمجد والشعر

وما كان إلا مال من قل ماله

وذخراً لمن أمسى وليس له ذخـر

وأعجب كيف يورد الآمدى هذه الأبيات في باب سرفات
أبي تمام على أنها من كلام مكنف ، والانتحال فيها ظاهر
والتفاوت بين . وقصة الحسن بن وهب معروفة . ١١

أما المعاني فقد ذكر منها في باب المعايب عن أبي العباس
قول أبي تمام :

رقيق حوائى الحلم لو أن حلمه بكفيك ماماريت في أنه برد
قال أبو العباس : هذا الذي أضحك الناس منه منذ سمعوه
الى هذا الوقت ولم يزد على هذا . وقال الآمدى : والخطأ في هذا
ظاهر لأنى ما علمت أحدا من شعراء الجاهلية والاسلام وصف
الحلم بالركة . وإنما يوصف الحلم بالعظم والرجحان . والثقل والرزانة .
ونحو ذلك كما قال النابغة :

وأعظم أحلاماً وأكبر سيـداً وأفضل مشفوعا اليه وشافعا
والمعنى في بيت أبي تمام جديد ولا شك . ولا يعيبه أن
شعراء الجاهلية والاسلام لم يصفوا الحلم بالركة . فأبو تمام ولا شك
غير مقيد بما قاله شعراء الجاهلية والاسلام . ورقة الحاشية هنا

دليل على لطف المدوح وسلاسة مأخذه وعذوبة أخلاقه . أما تشبيه الحلم بالبرد فيأتي من لينه وإحكام نسجه وجمال ألوانه وكل هذه معان بديعة غابت عن الآمدى .

قال : وأنكر أبو العباس على أبي تمام قوله

من الهيف لو أن الاخلاخل صورت

لها وشحا جالت عليها الاخلاخل

ولم يذكر موضع العيب فيه ولا أراه علمه . وهذا الذي وصفه أبو تمام ضد ما نطقت به العرب . وهو أقبح ما وصف به النساء . لأن من شأن الاخلاخل والبرين أن توصف بأنها تعض في الأعضاء والسواعد وتضيق في الأسوق . فاذا جعل خلاخلها وشحا تجول عليها فقد أخطأ الوصف . . . وإذا كان الاخلاخل وهو الحلقة المستديرة المعروف قدرها وشاحا للمرأة فانه يأخذ أعلى جسدها كله . وإذا كانت كذلك فقد مسخت إلى غاية القماء والصغر . وصارت في هيئة الجعل وهذا نقد نوافق عليه الآمدى ولكننا نخالفه في قوله بعد هذا . ولا يستقبح نحو قول الشاعر :

من رأى مثل حبتى تشبه البدر إذ بدا

يدخل اليوم خصرها ثم أردافها غدا
فهذا هو التهريج المضحك الذي نستقبجه في الشعر ونعده
من الزيف .

ومما أخذه على البحترى قوله في وصف الفرس :
ذنب كما سحب الرءاء يذب عن

عرف وعرف كالقناع المسبل
لأن ذنب الفرس اذا مس الأرض كان عيبا . وهذا قد يكون
صحيحا . وان كان في البيت من جمال الوصف ما يدعو إلى التجاوز
وما الخيلة اذا كان الفرس الذي يصفه البحترى هذه صورته . وانما
نظر إلى جماله لا إلى شيء آخر . وقد وصفه أجمل وصف .
وأخذ على البحترى قوله :

غريب السجايا ما تزال عقولنا
مدلّمة في خلة من خلاله

اذا معشر صانوا السماح تعسفت

به همة مجنونة في ابتذاله

قال وقوله اذا معشر صانوا السماح معنى ردىء لأن البخيل
ليس من أهل السماح فيكون له سماح يصونه . وسواء عليه قال

صانوا السماح أو صانوا السخاء. أو صانوا الجود أو صانوا الكرم.
فان هذا كله لا يملك البخلاء منه شيئاً وهو منهم بهيد فكيف
يصدقونه فان قيل انما اقام السماح مقام الشيء الذي يسمح به وفي
مجازات العرب ما هو أبعد من هذا. قيل البحترى لا يسوغ
مثل هذا ولا يجوز له لأنه متأخر. ولا سيما أن ليست هنا
ضرورة لأنه قد كان يمكنه أن يقول صانوا الثراء مكان صانوا
السماح.

والسماح في رأينا هو ما يسمح به من المال وقد أتى في البيت
من قبيل المجاز. ولا أدري كيف يكون المجاز وقفا على المتقدمين،
ولا يجوز للبحترى لأنه متأخر. فالجواز من أبواب البلاغة.
ويسوغ للمتأخر كما يسوغ للمتقدم.

هذا ما جاء في باب المعاني. وتأتى بعده الموازنة. وما انتهى
إليه الأمدى من محاسن الشعراء وهو خاتمة الكتاب. ويشتمل
هذا الباب على ما افتتحنا به القول من ذكر الوقوف على الديار
والآثار ووصف المدن والاطلال والسلام عليها، وتعفية الدهور
والإزمان والرياح والأمطار إياها والدعاء بالسقيا لها والبكاء فيها
وذكر استعجابها عن جواب سائلها. وما يخلف قطينها من

الوحش وتعنيف الصحابة ولومهم على الوقوف بها ومما ذكره
في إحسان البحري في هذا قوله :

أُحِلَّتِي سَلَمِي سَلَامًا

وتعلما أن الهوى ما هجما

هل ترويان من الأُحبة هائما

أو تسعدان على الصبابة مغرما

أُبكيكما دمعاً ولو أني على

قدر الجوى أبكى بكيتكما دما

ومن جيد شعر أبي تمام قوله :

أرامة كنت مألّف كل ريم لو استمتعت بالانس القديم

أدار البؤس حسنك التصابي إلى فصرت جنات النعيم

لئن أصبحت ميدان السواني لقد أصبحت ميدان الهموم

ومما ضرم البرحاء أني شكوت فما شكوت إلى رحيم

أظن الدمع في خدي سيفني رسوما من بكائي في الرسوم

قال وهذا من أسهل الكلام وأسلسه نظماً ومن أبعد القول

من التكلف والتعسف وأشبهه بكلام المطبوعين وأهل البلاغة

وقوله فصرت جنات النعيم معنى حسن . ولكن فيه إشراف

أن يجعل داراً خلعت من أهلها دار بؤس وهو باك فيها جنات
النعيم وقد أتى البحترى بهذا المعنى متبعاً فيه أبا تمام ولكنه جاء
به على سبيل اقتصاد واعتدال واجتنب إفراطه فقال :

يا مفانى الأحناب صرت رسوماً وغدا الدهر فيك عندي ملوماً
الف البؤس عرصتيك وقد كنت مت بعيني جنة ونعيماً
فقال :

الف البؤس عرصتيك وقد كنت بعيني جنة ونعيماً
فجعلها جنة ونعيماً فيما مضى . ومع هذا فإني أقول أن بيت
أبي تمام أحسن .

ولا أرى إسرافاً في قول أبي تمام لأن الحب يبكي الديار الدارسة
وينعاهما وهو مع ذلك يعشقها ويصبو إليها ويألفها وينظر إليها
النظرة التي وصفها أبو تمام بجنات النعيم . ولقد احتاط الشاعر
للمعنى وقواه بقوله حسنك التصابي . وهو معنى صحيح مألوف
وقد غفل الأمدى عن جيد البحترى وأبي تمام . حيث قصر
اختياره على هذه الأغراض . ونكتفي بهذا القدر من رأى
المتقدمين في البحترى وأبي تمام . وهو يعطيك صورة من وجوه
النظر المختلفة في الشعراء .

وصف الربيع

بين البحترى وأبى تمام

غاية ما يصل إليه الشاعر أو المصور إذا أراد أن يصف لنا الربيع . أن يعطينا صورة بديعة تعبر عن جماله ، وتحكى ما يخالج نفسه من الشعور نحو هذا الجمال .

وقد تكون هذه الصورة . منظرا من مناظر الطبيعة ، أو رمزا من الرموز لا يقل في تعبيره عن ذلك المنظر ، وفي كلتا الحالتين ينقل إلينا ذلك الشعور الرفيع الذى يخالج نفس الفنان ، أمام تلك المشاهد التى تخلب اللب وتهز أوتار القلوب . وبقدر ما لديه من دقة الحس ، وقوة الانتباه ، وسلامة الذوق ، فى تخير الصورة التى يعبر بها عن تلك المشاهد العديدة ، وبقدر ما عنده من المقدرة على نقلها إلى إحساسنا . تكون قيمة عمله الفنية وفى وصف الربيع لأبى تمام والبحترى صورتان رائقتان ، يرى القارئ فىهما أسمى ما يصل إليه شاعر أو مصور من هذه الناحية . وإذا كان للربيع جماله الذى يخلعه على كل شيء فى الحياة

فقد كان أخص ما تنبه اليه أبو تمام في وصفه ، صفاء الطبيعة ،
وجمال الأجواء .

مطر يذوب الصحو منه وبعده صحو يكاد من الغضارة يطر
غيثان فالأنواء غيث ظاهر لك وجهه والصحو غيث مضمحل
فهو هنا ينقل إلى عالم الحس صورة مستكملة النواحي ،
لغير المحسوس . فإذا بك تشعر به وتراه . بل وتكاد تتلمسه
بيديك . وهذا نوع رفيع من التصوير الشعري قل أن يصل إليه
شاعر أو مصور .

فإذا جاء إلى وصف الربى والرياض ، وما يكسوها الربيع من
شتى المحاسن والألوان . أعطاك الصورة الكاملة لما يريد أن ينقله
إليك . فهنا الزهر الأبيض يمتزج بأشعة الشمس فيتكون منهما
في الجولون أزهر رقيق كأشعة القمر . فيهيب الشاعر بصاحبيه
وهو في نشوة اللذة والطرب . أن انظرا معي إلى تلك الفتنة
وذلك الجمال ، ودعاهموم الحياة وشغلها ، فليست الحياة في
الربيع إلا منظرا تجتليه العيون :

يا صاحبي تقصيا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تصور
تريانهارا مشمساً قد شابه نور الربى فكأنما هو مقمر

دنيا معاش للورى حتى إذا جاء الربيع فأثما هي منظر
 أضحت تصوغ بطونها لظهورها نورا تكاد به القلوب تنور
 من كل زاهرة تفرق بالندى فكأنها عين اليك تحدر
 تبدو ويحجبها الجيم كأنها عذراء تبدو نارة وتخفر
 وهنالك الزهر الأصفر والزهر الأحمر . فلا يكتفى الشاعر
 بأعطائك صورته ولونه ، حتى يعطيك الضوء الذى يلائمها

حمرة مصفرة فكأنها — عصب تيمن فى الورى وتحضر
 من فاقع غض النبات كأنه در يشقق — قبل — ثم يزغر
 أو ساطع فى حمرة فكأنما يدنو إليه من الهواء . معصفر

فالدر المزغر فى وصف أبى تمام . يعطينا صورة للأزهار
 الصفراء ، تسطع تحت أشعة الشمس .

أما الأزهار الحمراء ، فلم يكتفى الشاعر بوصفها بذلك
 اللون ، فهو يرينا تأثيره على الفضاء الذى حوله : فأنت تنعم
 النظر فيها ثم تحوله . فترى اللون قد تحول معك ، فصبغ الهواء
 الذى حوله .

وليس هذا الوصف ببعيد عن الواقع المحسوس . ولا هو

من صنع الخيال . كما قد يتراءى . ولكنه ينطبق مع الواقع كل
الانطباق فقد تكون الألوان من القوة والخلابة ، بحيث لا يغيب
تأثيرها على شبكة العين ، مجرد تحول النظر عنها .

ووصف الربيع بهذه الصورة مما لم يسبق أبا تمام اليه شاعر
من الشعراء .

أما البحترى فقد أرانا الربيع في صورة رمزية بديعة . وكان
حريصا على التشخيص في جميع معانيه . وهذا نوع آخر من
الوصف يحتاج إلى سعة في الخيال ودقة في التصوير ، ولطف
في الاحساس ، وقد اجتمعت جميعها في أبيات البحترى .

فأنت ترى الربيع شخصا طلق الحيا ، ضحوك الوجه يختال
في حلال الحسن والبهاء . فيكاد ينطق بما حوى من الفتنة والجمال :
أناك الربيع الطلق يختال ضاحكا

من الحسن حتى كاد أن يتكلما

هذه ولا شك صورة مستكملة للربيع يزيد بها جمالا ،
جزالة اللفظ وقوة التعبير . ولا يقلل من قيمة هذه الصورة ،
أن أبا تمام سبقه الى هذا التشخيص . فقال في احدى أراجيزه :
إن الربيع أثر الزمان لو كان ذا روح وذا جسمان

مصوراً في صورة الانسان لكان بساما من الفتيان
فليست هذه بالصورة التي تقارن بصورة البحترى ، بل
هى على العكس صورة باهتة إلى جانب تلك الصورة الرائعة .
فلم يزد أبو تمام على أنه صور الربيع : بسام من الفتيان ،
قد يكون جميلاً وقد لا يكون . وأين ذلك من الربيع الذى يزفه
اليك البحترى في ذلك المهرجان العظيم .

ويستمر الشاعر فيعطيك من صور الأزهار تلك التى يفتحها
النوروز في غسق الظلام :

وقد نبه النوروز في غلس الدجى أوائل ورد كن بالأمس نوماً
وانظر دقة التصوير الذى يجمع بين يقظة العيون الناعسة
وتفتح تلك الأزهار من الأكمام ، وتأمل كيف استطاع أن
يوفق بين هاتين الصورتين

فاذا استكمل للأزهار صورتها على النحو الذى تراه في البيت ،
أوماً الى المعنى الشعري الذى توحيه فقال :

يفتقها برد الندى فكأنه يبت حديثاً كان قبل مكثما
وحديث الطبيعة على لسان الأزهار ، آية من آيات البحترى
في ذلك العصر .

وهو يذكّرنا بالشاعر الانجليزى الكبير وليم وردسورث
الذى يرى فى مناظر الطبيعة صوراً حية ، تخاطب الانسان بلغة
السكون ، وتعبّر له عن أفكاره . فتنبه البحترى اليه ، وإيراده
هذا الايراد البديع نعه من حسناته التى تقابل بالاعجاب
فاذا وصف البحترى الأشجار، والربيع يكسوها تلك البرود
الموشاة ، ونسيم الصباح فى نعومتها ورقته . لم يغيب عنه أن يعطى
وصفه تلك الصورة الانسانية الحية :

ومن شجر رد الربيع لباسه عليه كما وشيت برداً منمنماً
أحل فأبدى للعيون بشاشة وكان قذى فى العين إذ كان محرماً
ورق نسيم الصبح حتى حسبته يحبىء بأنفاس الأحبة نعماً
وليس من ههنا أن نفاضل بين الشعارين ، فكل منهما قد
وصف الربيع وصفاً بديعاً خلاّباً . وإنما تمتاز الأبيات الأولى
بدقة الملاحظة ولطف الاحساس ، وعلى الأخص فى تصوير
الأجواء .

وتمتاز الثانية بمحسن التصور وسمو الخيال اللذين يظهران
فى تشخيص الشاعر للمناظر ، وتصويره لما وراءها من الإحاء ،
يزيد فى قيمتها جمال الموسيقى وبهجة الألفاظ .

وصف المطر

عند أبي تمام والبحترى

لأبي تمام اتجاه شعري بديع في وصف المطر ، وله دقة في
تصوره في صوره المختلفة . فهناك المطر الرقيق الذى يأتى في
الربيع . صوره في بدء قصيدته في وصف الربيع وقد تكلمنا عنها
في الفصل السابق .

وهناك المطر الغزير الذى يصاحبه السكون فلا رعد ولا برق .
ولكن ديمة سمحة القياد تهيم على الأرض المتشوقة المستغيثة
بشؤبوب طيب بديع ، فيكشف الروض عن رأسه ، وتبدو
روعته وينجلي المحل حيث كان :

فاذا الرى بعد محل وجرجا ن لديها يبرين أو ملحوب
وهذا نوع آخر من المطر وقد استهل بوصفه قصيدته
الرائعة . في مدح محمد بن عبد الملك الزيات ويقول فيها :
ديمة سمحة القياد سيكوب مستغيث بها الثرى المكروب

لو سعت بقعة لاعظام نعمى لسعى نحوها المكان الجديب
فهى ماء يجرى وماء يليه وعزال تنشا وأخرى تذوب
لذ مشؤوبها وطاب فلو تس طيع قامت فعانقتها القلوب
كشف الروض رأسه واستمر المحل منها كما استمر المريب
فاذا الرى بعد محل وجرجا ن لديها يبرين أو ملحوب
فوصف هذه الديمة بالسلاسة واللين، واتخذ لها صورة
الجياد. أو العيس السمحة القياد السهلة المأخذ. ثم وصف أثر
هذه الديمة فى الأرض ثم أثرها فى القلوب أبدع وأجل وصف
وقد تبعه المتنبي فى البيت الثانى فقال :

لو تعقل الشجر التى قابلتها مدت محمية اليك الأغصنا
وفى البيت الرابع يصف أبو تمام تتابع الماء وتشوء المطر ثم
انسكابه دواليك . فاذا أنت أمام صورة بديعة تريك هذه الديمة
وتصور إحساس الشاعر بها ودقة تصويره لها فى الارض والسماء
وفى منشئها وانحدارها وحال الارض التى نزلت عليها .
وصورة فى شعر أبى تمام تختلف عما تقدم وتلك هى صورة
طر تصحبه الغيوم وتلازمه الرعود والبروق ، ويشتهب فيه
الثلج كالكهل بعد السن ويقول فيه :

لم أرَ غيرَ حمة الدعوب تواصل التهجير بالتأويب
أبعد من أين ومن لغوب منها غداة الشارق الهضوب
نجائباً وليس من نجيب شبائه الأعناق بالعجوب

فهو هنا يبدأ بوصف السحب ويصورها بالعر الدعوب ،
تشبه أذنابها أعناقها تراكمها وتتابعها السريع ثم يستطرد في
وصفها فيقول :

كالليل أو كاللوب أو كالنوب منقادة لعارض غريب
كالشيعة التفت على النقيب آخذة بطاعة الجنوب
والمقصود بالجنوب هنا القلوب . ويسترسل الشاعر في
الوصف فيصور : إحساس الأرض بهذه السحب كما يراه في
نفسه فيقول :

لما بدت للأرض من قريب تشوفت لوبلها السكوب
تشوف المريض للطبيب وطرب المحب للحبيب
وفرحة الأديب بالأديب وخيمت صادقة الشؤبوب
ثم يصور صوت الرعد ، وهو ينبعث من عل ، وتناوح
الرياح في الآفاق فيقول :

فقام فيها الرعد كالخطيب وحنن الريح حنين النيب
ثم يقول في وصف الأرض في رداؤها المرصع بالأزهار
وانتشار التلوج :

والأرض في رداؤها القشيب في زهر من نبتها رطيب
بعد اشتهاه الثلج والضرب كالسكر بعد السن والتحنيب
تبدل الشباب بالمشيب كم آنت من حاضر غريب
وغلبت من اثرى المغلوب ونفست عن بارض مكروب
ويختتم تلك الصورة بهذا البيت الرائع :

لذيذة الريق والصبيب كأنها تهمل على القلوب

ولأبى تمام في وصف المطر غير ما تقدم قصيدته الدالية
التي يقول في مطلعها :

حماد من نوء له حماد في ناجرات الشهر لا الدآدى^(١)
ومنها :

سيارة سمحة القياد مسودة مبيضة الأيادي
سهادة نائمة بالوادي كثيرة التعريس بالوهاد
(١) حماد : أى حمدا . والناجرات الشديدة الحر والدآدى ليالى المحاق

نزالة عند رضا العباد قد جعلت للمجل بالمرصاد
سبقت ببرق ضرم الزناد كأنه ضماير الأغمد
وضماير الأغمد كناية عن السيوف .

وللبحتري أبيات تدخل في هذا الباب يقول فيها :

ذات ارتجاز بمحنين الرعد مجرورة الذيل صدوق الوعد
مسفوحة الدمع بغير وجد لها نسيم كنسيم الورد
ورنة مثل زئير الأسد ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بهاريج الصبا من نجد فانتشرت مثل انتشار العقد
فراحت الأرض بعيش رغد من وشى أنوار الربا في برد
كأما غدرانها في الوهد يلعبن من حبابها بالنرد
ويروى أن لهذه الأبيات قصة وهي أنه دخل على المتوكل
وهو جالس ببعض البرك والماء يسقط فيها، فقال له قل في هذا
يا بحتري قال البحتري ولم أكن ذا بديهة ولكني اعتزلت جانبا
حتى قلت الأبيات، فقال المتوكل أنظروا ماذا في الخزائن من
ماء الورد العتيق فادفعوه الى البحتري قال فأخذت من ذلك شيئا
وبعته بمال . وإنما دفع اليه المتوكل ماء الورد لقوله :

لها نسيم كنسيم الورد . وهذه القصة تفسر الاختلاف
الظاهر بين أبيات البحترى وأبي تمام .

فأبو تمام إنما يصف المطر في صورة واسعة متفتحة وكنسيرا
ما عرض له ذلك وهو على سفر بعيد أو مشرف على منظر من
مناظر الطبيعة الفسيحة الأرجاء .

ولكن البحترى هنا يصف المطر في صورة محدودة أمام
بركة من برك المتوكل مهما قيل فيها فأنها من صنع الانسان .
فجاء وصفه على ما فيه من جمال واتقان منطبقا على الصورة التي
يراها ويبدو التقشف والبداوة في أبيات أبي تمام ويلوح الترف
والغضارة في وصف البحترى وكلا الوصفين بديع في نوعه صادق
في تصويره .

القصـور

في شعر البحترى

هذا الباب من الأبواب التي سما فيها البحترى ، وبزغ نجمه
وتجلت شاعريته ، وقد أتاح له قربه من الخلفاء . وملازمته
بعضهم من عوامل الترف ما امتزج بروحه الشاعرة . فنظم في
وصف القصور التي تفننوا في إبداعها ، آيات فنه . وإذا كانت
تلك القصور قد عفى عليها الدهر وذهب أثرها ، فإن شعر البحترى
فيها لا زال باقيا يريك صور البذخ الذي كان يستمتع به الخلفاء
في أواسط القرن الثالث الهجرى ويقول فيها :

حلل من منازل الملك كلاً نجم يلمع في سواد الظلام
مفحات تعي الصفات فما قد رك إلا بالظن والأوهام
فكأننا نحسها في الأمانى ونراها في طارق الأحلام
وقد وصف البحترى البركة التي أنشأها المتوكل في قصر
الجعفرى فجمع بين دقة التصوير ورقة الموسيقى وعذوبة اللفظ .

فوصف صفاء البركة وتدفق المياه فيها بقوله :

فلو تمر بها بلقيس عن عرض قالت هي الصرح تمثيلا وتشبيها
تنصب فيها وفود الماء معجلة كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجري في مجاريها
ثم وصف النسيم وهو يمر عليها فيحدث غصونا على صفحتها.
وانتقل من ذلك إلى وصف الشمس وهي تلقى أشعتها عليها ثم
الغيث وهو يهيم من فوقها . ووصفها في الليل والنجوم متألقة
فوقها مزدهرة على أديمها وانتقل بعد ذلك إلى وصف الأسماك
وهي تسبح فيها فلا تبلغ غايتها ، ووصفها وهي تنزل إلى أغوارها
ثم ترتفع إلى سطحها . وقد بلغ في ذلك جميعه غاية ما يتطلبه
الوصف من جمال فيقول :

إذا علمتها الصبا أبدت لها حبا

مثل الجواشن مصقولا حواشيها

فجاءت الشمس أحيانا يضاحكها

وريق الغيث أحيانا يباكيها

إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلا حسبت سماء ركبت فيها

لا يبلغ السمك المحصور غايتها لبعد ما بين قاصيها ودانيها

يعمن فيها بأوساط مجنحة كالطير تنقض في جو خوافيها
لهن صحن رحيب في أسافلها إذا انحططن وبهو في أعاليها
ووصف البحترى الصبيح والمليح وهما قصران بناهما المتوكل :
واستتم الصبيح في خير وقت فهو مغنى أنس ودار مقام
ناظر وجهه المليح فلو يسـ طبع حياه معلناً بالسلام
ألبسا بهجة وقابل ذا ذا ك فمن ضاحك ومن بسام
مستمد مجدول من عباب الماء كالأبيض للصقيل الحسام
وإذا ما توسط البركة الحسناء القت عليه صبغ الرخام
وفي هذا الوصف تبدو بهجة القصور وأنسها ، وكأنها
تضحك أو تبسّم عما أودعت من جمال وحوت من نعيم ، ومن
بديع ما فيها التفاته إلى صبغ الرخام وهو يعكس لونه على البركة
ووصف قصر الكامل الذى بناه المعتز بالله بقصيدته التى
ول فيها :

لما كملت روية وعزيمة أعملت رأيك فى ابتناء الكامل
وغدوت من بين الملوك موفقا منه لأيمن حالة ومنـ ازل
ذعر الحمام وقد ترنم فوقه من منظر خطر المزلة هائل
وفى البيت الثالث من هذه الأبيات صورة من نوع التأثير

الذاتى فى الشعر . وذلك أن يعطيك الشاعر الأثر الذى يريد
فى نفسك بصورة تحدث ذلك الأثر فأن وصف الحمام بالذعر
يعطيك تلك الصورة الرهيبة لذلك المنظر الشاهق .

وقد أبدع البحرى القول فى وصف زجاج القصر ووصف
الرخام وقد خلعت عليه ألوان الجدران المختلفة . ووصف فى تلك
القصيدة السقوف المحلاة بألوان الذهب وقد شع سناها على
الظلام فى أبيات متألفة المعانى ، متينة السبك . وكأنما انتقل
إليها صفاء المنظر وجماله وعظمته ويقول فيها :

وكان حيطان الزجاج مجوه لجج يمجن على جنوب سواحل
وكان تفويف الرخام إذا التقى تأليفه بالمنظر المتقابل
حيك الغمام رصفن بين منمر ومسير ومقارب ومشاكل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه

نورا يضىء على الظلام الحافل
فترى العيون مجلن فى ذى رونق
متلهب العالى أنيق السافل

فاذا أعطاك صورة القصر بما فيها من الألوان البديعة
الساحرة انتقل بك إلى وصف بستانه :

وكأنما نشرت على بستانه سيراى وشى اليمنة المتواصل
أغنته دجلة إذ تلاحق فيمضها

عن صوب منسجم الرباب الهاطل
وتنفست فيه الصبا فتعطف

أشجاره من جبل وحوامل
مشى العذارى الغيد رحن عشية

ما بين حالمة اليدين وعاطل
ووصف الصبا وهي تنفس بين الأشجار فتتعطف أفنانها
كالعذارى الغيد وصف بديع يزيده حسنا تصوير الثمار والأزهار
بتلك الأوصاف الرائعة . ولم يسبق البحترى شاعر من المتقدمين
فى وصف القصور على هذا النحو الفريد .

وصف ايوان كسرى

للبحترى

لعل قصيدة البحترى فى وصف إيوان كسرى ، هى خير
ما نظم ، بل هى من خير ما نظم فى الشعر على الإطلاق . ولا إخال
أثرا من الآثار خلده الشعر بمثل ما خلدت قصيدة البحترى ذلك
الايوان . وقد جرى فى هــ هذه القصيدة على طريقة التسلسل
والاستقصاء وأخرج فيها الصور فى شتى المظاهر والألوان . فتنقل
من معنى نفسى الى معنى حسى . ومن صور ملموسة تتقراها
بإيدك ، الى صور ملحوظة تتقراها بذهنك ، وانتهى من ذلك
الى الكلام عن بناء الايوان وما كان لهم من العظمة والفخار ،
وقد خلع عن نفسه فى ذلك القدس كل ما فطر عليه العربى من
التعصب لجنسه فى أبيات تفيض بالركة وصدق الاحساس :
حلل لم تكن كاطلال سعدى فى قفار من المهامه ملس
ومساع لولا المحابة منى لم تطقها مسعاة عنس وعبس
ومنها :

ذاك عندي وليست الدار داري

بإقتراب منها ولا الجنس جنسي

غير نعمي لأهلها عند أهلي

غرسوا من ذكائها خير غرس

أيدوا ملكنا وشدوا قواه

بكافة تحت السنور دعس

وأراني من بعد أكلف بالأثـ

مراف طرا من كل سنخ وأس

ويبدأ البحري هذه القصيدة بأبيات حزينة مؤثرة تمثل

حالة الشاعر المعنوية ، فيلج ذلك الأثر ، وقد هيأ لك الجوال الشعري

الذي كان يحيط به ويملا نفسه فيقول :

صنعت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدى كل جبس

والجبس اللئيم .

وتماسكت حين زعزعني الدهر التماسامنه لتعسى ونكسى

ويقول :

حضرت رحلى الهموم فوجه ————— إلى أبيض المدائن عنسى

أتسلى عن الحظوظ وآسى لحل من آل ساسان درس

ذكر تنبيههم الخطوب التوالى ولقد تذكر الخطوب وتنسى
ثم ينتقل بك إلى وصف صورة إنطاكية ، وهي مرسومة
على الجدار ، وتمثل معركة بين كسرى أنوشروان والروم في
أنطاكية ، وهنا تتجلى مقدرة البحري الفنية ، فيعطيك وصف
الصورة بألوانها وشيائها ، ثم يريك وقعها في نفسه ، وينفذ إلى
ما وراء تلك الصورة من الرهبة والرعب في وصف المعركة
ويقول في ذلك :

فاذا ما رأيت صورة أنطا كية أرتعت بين روم وفرس
والنبايا موائل وأنو شر

وان يزجى الجيوش تحت الدرفس
في اخضرار من اللباس على أص

فر يختال في صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه

في خفوت منهم وانماض جرس

من مشيح يهوى بعامل رمح ومليح من السنان بترس
يغتلى فيهم ارتيابى حتى تنقراهم يداى بلمس

(١) الدرفس : الراية .

وقد فطن البحترى إلى كل ما يطلب من الشاعر في هذه
الآيات فلم يترك شيئاً تحتاجه النفس في تلك الصورة إلا نقله
في اجمال يغنى عن التفصيل ..

ثم هو يصف الايوان وعظمته ، وما حل به من الكآبة
بعد فراق أهله ويتخيل فيه وفود كسري خلف الزحام والقيان
وراء المقاصير يرجعن الأغاني والأناشيد :

وكان اللقاء أول من أمس ووشك الفراق أول أمس
ومن قوله في وصف الايوان :

وكان الايوان من عجب الص

نعة جوب في جنب أرعن جلس

يتظنى من الكآبة أن يمدو لعيني مصبح أو ممسي

مزعجا بالفراق عن أنس إلف

عز ، أو مرهقا بتطليق عرس

عكست حظه الليالى وبات الم

شترى فيه وهو كوكب نحس

فهو يبدى تجلدا وعليه كاكل من كلاك الدهر مرسى

وقد تبع البحترى في هذا المعنى الشريف الرضى ،

قال في وصف بيت قديم :

بالي المعالي أطرقت شرفاته إطراق منجذب القرينة عاني

ومن قول البحترى في وصف الايوان :

مشمخر تعلو له شرفات رفعت في رءوس رضوى و قدس

لابسات من البياض فما تبصر منها إلا غلائل برس

ليس يدرى أصنع أنس لجن سكنوه أم صنع جن لأنس

غير أنى أراه يشهد أن لم يك بانيه في الملوك بنكس

* * *

فكأنى أرى المراتب والقو م إذا ما بلغت آخر حسى

وكان الوفود ضاحين حسرى

من وقوف خلف الزحام وخنس

وكان القيان وسط المقاصير يرجعن بين حو ولعس

وكان اللقاء أول من أمس ووشك الفراق أول أمس

وتمتاز هذه القصيدة فوق ما فيها من الوصف البديع ،

بعذوبة اللفظ وموسيقية الجرس . وقد اختار لها البحر الموائم

لأوصافها ، واتخذ لها تلك القافية التي تخلع على القصيدة لوناً من

الرغبة والتأثير

الحكمة في شعر أبي تمام

من تمام القول في هذا الكتاب، أن نعرض للحكمة في شعر أبي تمام - وأنا في الحقيقة أخرج من إدخال الشعر في هذا الباب . فالشعر في الواقع شيء غير الحكمة . والحكمة المجردة التي تجرى مجرى المثل لا قيمة لها من الناحية الشعرية .

وقد كان بعض الشعراء يرمى من نظم الحكم إلى خلودها، وسيرها على الألسنة، لأنها كلام عام لا يحمل معنى شخصياً أو حدثاً معيناً . . . والحكمة في رأيي إذا خلت من صورة شعرية، أو التفاتة ذهنية، أو معنى نفسانيا، خرجت من دائرة الشعر . ودخلت في باب المتون المنظومة .

ومن الانصاف لأبي تمام أن نقول إنه لم يكن يعني بهذا النوع من الشعر، وله من الحكم ما يأتي بغير قصد وتغلب عنده الصورة الشعرية على الحكمة . أو يكمل كل منهما الآخر حتى يصيرا شيئاً واحداً . من ذلك قوله في قصيدة إلى أحمد ابن أبي دواد :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاخ لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما حولها ما كان يعرف طيب عرف العود
والصورة الشعرية ظاهرة في هذين البيتين، وهى والحكمة
شئ واحد ومثل ذلك قوله :

لا تنكروا عطل الكريم من الغنى

فالسيل حرب للمكان العالى

ويبدو التصور الشعرى والاحساس النفسى فى مثل قوله :
دنيا معاش للورى حتى اذا جاء الربيع فانما هى منظر
وتظهر الالتفاتة الفكرية فى قوله :

قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت

ويبتلى الله بعض القوم بالنعيم

وربما وردت الحكمة فى شعره وهو معرض الغزل مثل قوله :
نقل فؤادك ما استطعت من الهوى

ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى

وحنينه أبداً لأول منزل

فيمتزج الحنين بالعبرة، والهوى بالحكمة . وتسير النفس
الشاعرة ، والنفس المفكرة جنباً إلى جنب ، فى ظلال وارفة من

الجمال . وقد ترد على لسانه وهو يتغنى بوصف الخمر مثل قوله :
وضعيفة فاذا أصابت فرصة قتلت كذلك قدرة الضعفاء
فترى وصف الخمر يقترن بالحكمة العالية في وصف
الضعيف اذا وجد القدرة على البطش . وكثيرا ما تملوا بقوله
هذا في وصف المرأة . وربما جاء بالحكمة الخالدة وهو بمعرض
الهجاء مثل قوله في هجاء عتبة بن أبي عاصم .

همم الفتى في الأرض أغصان المنى

غرست وليست كل حين تورق

واذا عرفنا تأثير الحكمة في الطبيعة العربية ، ومبالغ مالها
من القوة في الحياة الفكرية والأدبية في عصر أبي تمام وما
تقدمه من عصور الدولة الإسلامية بل وفي عصور الجاهلية تبين
لنا قيمة الحكمة في شعر أبي تمام وما كان بنفسه الشعراء منها .
روى صاحب الأغاني قال :

« حدث هارون بن عبد الله المهلبى قال . كنا في حلقة دعبيل ،
فجرى ذكر أبي تمام ، فقال دعبيل كان أبو تمام يتبع معاني
فيأخذها . فقال له رجل في مجلسه . وأى شيء من ذلك أعزك الله ؟
قال قولى :

وإن امرؤ أسدى إلى بشافع
إليه ويرجو الشكر مني لأحمق

شفيعك فاشكر في الحوائج إياه
يصوتك عن مكروهم وهو يخاف

فقال الرجل فكيف قال أبو تمام ؟ فقال قال :

فلقيت بين يديك حلو عطائه

ولقيت بين يدي مر سؤاله

وإذا امرؤ أسدى إليك صنيعه

من جاهه فكأنها من ماله

فقال والله لئن كان أخذه منك لقد أجاد فصار أولى به منك ،

وان كنت أخذته منه فما بلغت مبلغه

ولكننا نخطيء إذا وصفنا أبا تمام بالحكمة ووقفنا عند هذا

الحد ، تمشياً مع قول من قال : المتنبي وأبو تمام حكيان والشاعر

البحترى فالأغراض الشعرية كثيرة في شعره وانما تأتي الحكمة

عرضاً في سياقها . فهي حليلة في ذلك الأكليل الذي تزين به

هامة الشاعر وإن لم تكن أزهى ما فيه . الحللى والزينات .

شارع أمين باشا سائى
بالمدينة

دار الفكر العربى

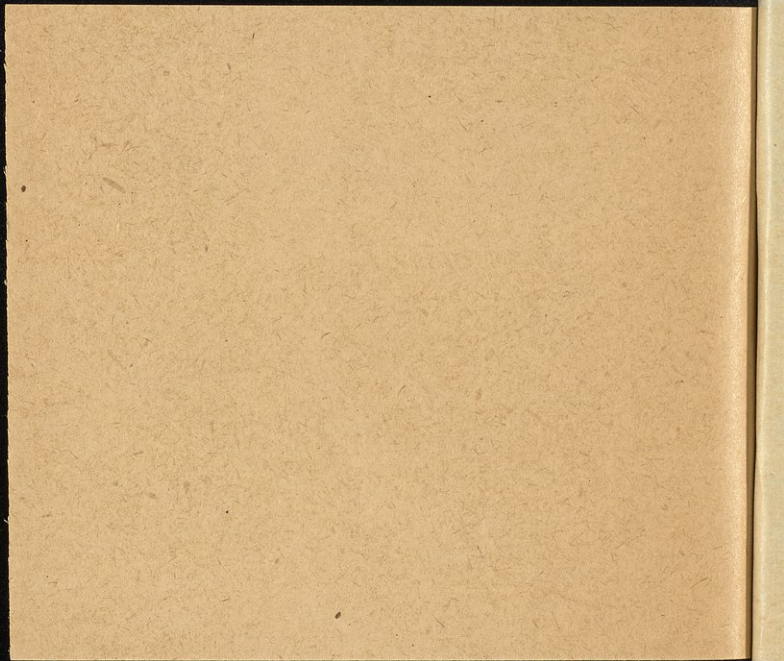
تليفون ٥٦٤٦٧

مؤسسة عربية للنشر والطباعة

أصدرت حديثاً

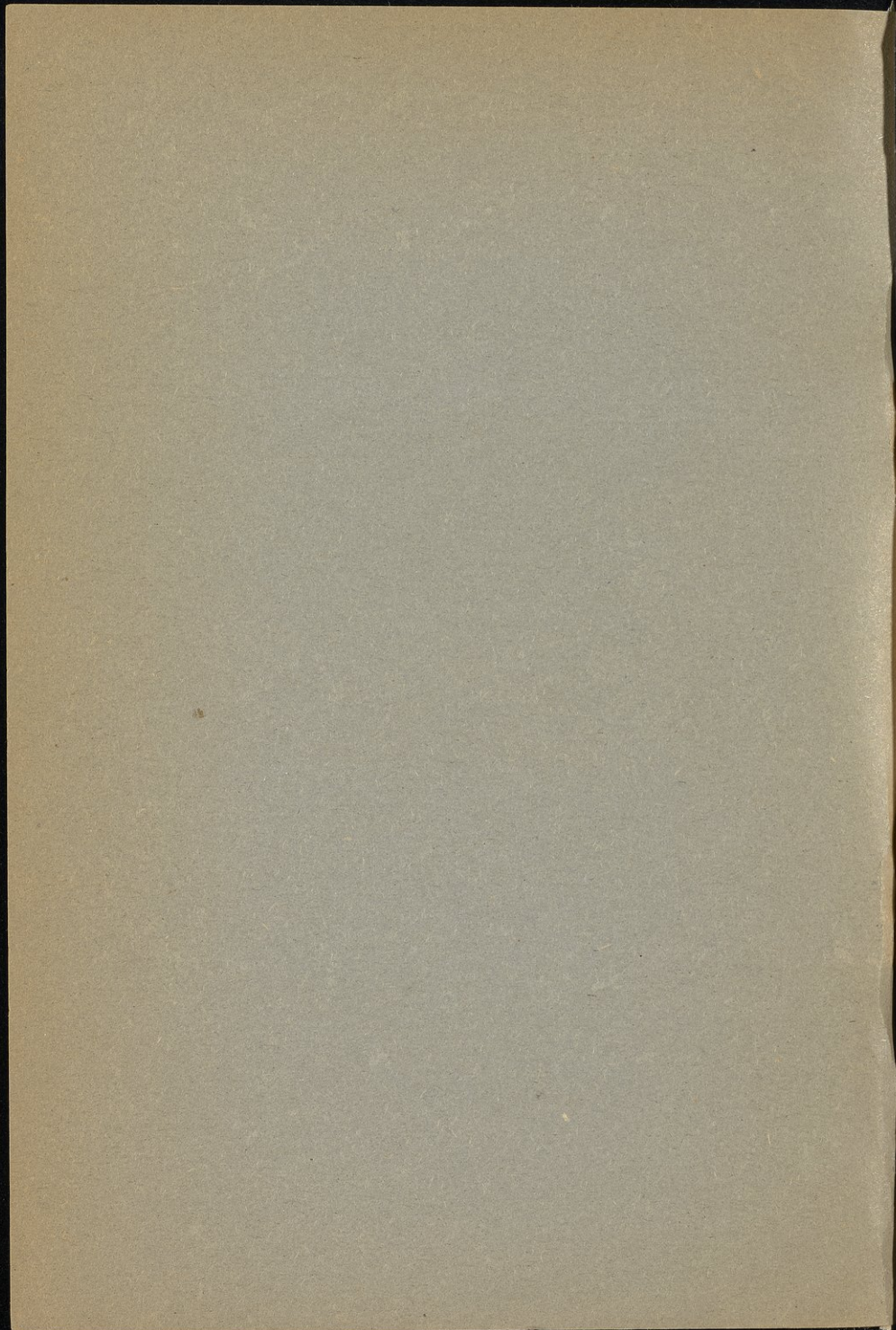
- أدب مصر الاسلامية : للدكتور محمد كامل حسين المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد اتجاه جديد فى فهم الأدب وإبراز لخصائصه على ضوء الروح المصرية الأصيلة وثمنه ٢٥ قرشا
- تاريخ الأدب الفارسى : تأليف الدكتور رضا زاده شفق الأستاذ بجامعة طهران وترجمة الأستاذ محمد موسى هنداوى المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد ، يسد حاجة المؤرخ والأديب والدارس للغة الفارسية ، وبه ما يقرب من أربعائة بيت من الشعر وخريطتان للعالم الإسلامى وأشهر مدنه وبعض اللوحات عن أهم الشخصيات وثمنه ٤٥ قرشا
- أبو العلاء المعرى ناقد المجتمع : للدكتور زكى المحاسنى الأستاذ بتجيزية دمشق ، أول كتاب يبحث فى نقد أبى العلاء لمجتمع رجاله ونسائه وثمنه ٢٠ قرشا
- قصصنا الشعبى : للدكتور فؤاد حسنين الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد ، قال فيه الأستاذ محمود تيمور بك : « اطلعت على أبحاث فنية ديجتهاراعتكم الكريمة فراقنى فيها تحليلكم الفنى لهذا القصص واهتمامكم بالتعريف به » وثمنه ٢٠ قرشا
- الأدب المقارن : تأليف فان تيجم ، باكورة سلسلة الآداب العالمية التى تتولى دار الفكر العربى إصدارها من تأليف أعظم الأساتذة المختصين ، وترجمة خيرة الكتاب والأدباء العرب . نقطة حاسمة فى تاريخ الدراسات باللغة العربية وثمنه ٢٠ قرشا
- الأدب الانجليزى : تأليف پول دوتان ، الكتاب الثانى من سلسلة الآداب العالمية التى يعد ظهورها فتحاً جديداً فى دراسة الأدب الأوروبى باللغة العربية . ويشمل الصفوة المتأثرة من الأدباء الانجليز من معاصرين وقداى مع سرد واف لمؤلفاتهم وبحوثهم وثمنه ٢٠ قرشا

- فن القول : للأستاذ أمين الخولى الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، توجيه جديد في دراسة البلاغة العربية على أساس علم النفس وفلسفة الفن وعلوم اللغة وثمنه ٣٥ قرشا
- النقد الأدبي : أصوله ومناهجه : للكاتب المعروف سيد قطب ، كتاب يتحدث عن النقد متناولا الشعر والقصة والأقصوصة والتمثيلية والتراجم والبحث والمقالة ... وثمنه ٢٥ قرشا
- النحو الجديد : تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعیدی ، دراسة لأعظم ثورة على نحو سيوييه مع وضع أصول جديدة للنحو وثمنه ٢٠ قرشا
- في الأدب الحديث : للأستاذ عمر الدسوقي الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد ، دراسة لعوامل النهضة الأدبية في العصر الحديث من سياسية واجتماعية ، وعرض لأشهر الشخصيات الأدبية المعاصرة وثمنه ٣٥ قرشا
- الكلام في شعر البحترى وأبى تمام : للأستاذ محمد طاهر الجبلاوى : نشأة النقد عند العرب ، رأى المتقدمين في شعر البحترى وأبى تمام ، وصف الربيع والمطر بين البحترى وأبى تمام ، القصص في شعر البحترى ثم الحكمة في شعر أبى تمام ... وثمنه ١٢ قرشا
- أغاريد السحر : ديوان شعر للأستاذ على الجندى المدرس بكلية دار العلوم أربعة دواوين في ٣٧٠ صفحة محلاة بالصور الرمزية وهى : من الأعماق ، أصداء الحوادث ، أنفاس الأشجان ، نفح الغوالى تجمع بين الديباجة الفاخرة والمعنى الدقيق والخيال الرائع ... وثمنه ٣٠ قرشا
- المسرحية في شعر شوقي : للأستاذ محمود حامد شوكت المدرس بالمدارس الثانوية الأميرية بحث في شعر شوقي وتقديم لتاريخ المسرح المصرى مع تحليل ونقد كل مسرحية وثمنه ٢٠ قرشا
- هسيود : شاعر إغريقى نادى بالسلم أداة للتعامل والحبة دستوراً للحياة ، لقب بنى عصره ؛ وقد تضمنت منظومته الأعمال والأيام من حكم وعظات ونقد اجتماعى صريح وبه أول تقويم زراعى ، أول كتاب تربيتى سجت الأجيال المختلفة بتدريسه ؛ ترجمة الأستاذ أمين سلامة ليسانسيه في الآداب اللاتينية وثمنه ١٥ قرشا
- شعر الحرب في أدب العرب : للدكتور زكى المحاسنى ، بحث من الأبحاث الدقيقة التى تناولت جانبا مهجورا من الأدب العربى منذ نشأته حتى عصر المتنبى ... وثمنه ٤٠ قرشا



تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٧	٥	إنشاء	إنشاد
٨	٣	حتى ظننت	حتى ظننت قوافيه
٤٤	٥	يطلع	يطلع
٤٤	١٣	الخطوب	الحظوظ
٤٧	١٠	عقد	عقل
٦٦	٨	الايطاء	الايطاء
٧٢	١١	بكاتي	بكاتي



طبعة الاعتماد بمصر

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 074449388

(NEC)
PJ7745
.B8
Z683
1940z